أجاثا كريستي

مقهى الموت الغامض

دار النجمة للنشر والتوزيع

مقهى الموت الغامض

أجاثا كريستي

مقهى الموت الغامض

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

أخذت الغلاية تصفر خلفي كثعبان غاضب، وكان الصوت الذي يصدر عنها كئيباً أشبه بصوت شيطان مريد. ولم ألبث أن خامرني شعور بأن أكثر الأصوات التي يتميز بها عصرنا تعطينا هذا الإحساس، فأزيز الطائرات النفاثة وهي تخترق صفحة السماء، وهدير قطار الأنفاق عند اندفاعه خارجاً من النفق، والشاحنات الثقيلة التي تهزّ البيوت هزاً، وحتى الآلات المنزلية نفسها تساهم في هذا الإحساس، وإن كان لم يتعدّ هذا الإحساس طابع الإنذار بعد. فغسالة الأطباق والثلاجة والمكنسة الكهربائية، كل منها يقول لنا: حذارِ، أنا عبقرية مسخّرة لخدمتك، ولكن إذا حدث وفقدت سيطرتك عليّ يوماً ما...

حقاً، نحن نعيش اليوم في عالَم محفوف بالأخطار.

وحرّكت السائل الذي في القدح الموضوع أمامي والذي كانت تنبعث منه رائحة طيبة، ثم قال صاحب المقهى يسألني: ماذا تريد مع القهوة يا سيدي؟ هل لك في فطيرة لذيذة باللحم والموز؟

وبدا لي هذا الخليط عجيباً؛ فقد ارتبط الموز بأنواع الفاكهة والحلوى في أثناء طفولتي، ثم ها هو الآن يرتبط باللحم والبيض والخضروات! ولأنني كنت موجوداً في حيّ شلسي فقد رأيت أن

خير ما أفعله هو أن أجاري أهل الحي في عاداتهم، ولذا قبلت الفطيرة المعروضة عليّ.

وعلى الرغم من أنني كنت أقيم في غرفة مفروشة في شلسي منذ ثلاثة أشهر إلا أنني كنت أشعر فيها بأنني غريب عن أهلها في كل شيء، وأنا أكتب كتاباً عن الفن المغولي، وكان في مقدوري كي أكتب هذا الكتاب أن أقيم في هامبستيد أو في بلومسبوري أو سترتهام أو شلسي، فكلّها أماكن تستوي عندي ولا يهمّني إلا المراجع والأسانيد التي أحتاج إليها، ولكن موجة عارمة من الاشمئزاز والتقزّز اجتاحتني في تلك الليلة بالذات، موجة من تلك الموجات التي يعرفها الكتّاب والمؤلفون خير المعرفة، حيث بدا لي أن الفن المغولي والأباطرة المغوليين وكل خصائص الحياة المغولية وما يكتنفها من سحر وفتنة، كل هذا بدا لي رماداً وتراباً فجأة، ثم أخذت أسأل نفسي قائلاً: لماذا أهتمّ بهذا الفن؟ ولماذا أكتب عنه هو بالذات؟

ثم تناولتُ بعض الصحف وأخذت أعيد قراءتها، فبدا لي أن كل ما كتبت غاية في السوء ويفتقر إلى الإثارة والتشويق، وأن الذي قال: «إن التاريخ هراء»، وأظنه هنري فورد، قد أصاب بهذا القول. فنحّيت الصحف عني باشمئزاز ونهضت واقفاً، ثم نظرت إلى ساعتي فوجدتها تقترب من الحادية عشرة مساءً، فسألت نفسي قائلاً: هل تناولت عشائي؟

فأجابتني بطني بالنفي. وكان الغداء قد مضى على تناوله وقت طويل، فذهبت إلى الثلاجة ففتحتها فلم أجد فيها غير قطعة من اللحم الجافّ عافتها نفسي، فأغلقت الثلاجة باستياء ثم هبطت إلى كنجز رو ودخلت مقهى كانت لافتته المضيئة تحمل اسم لويجي،

ولم ألبث أن وجدت نفسي أتأمّل فطيرة من اللحم والموز وأفكّر في نفس الوقت في المعنى الكامن خلف الأصوات التي يتميز بها هذا العصر الذي نعيش فيه وفي الشرّ الغالب على الخير وفي حب الناس للانتصار والفوز دوماً.

صَفرت الغلاية في أذني من جديد فطلبت كوباً من القهوة، ثم أجَلت البصر حولي. لقد كانت أختي تتّهمني دائماً بأنني عديم الملاحظة وأنني لا أرى شيئاً مما يدور حولي، فأخذت أنظر حولي بشيء من الاهتمام، إذ كان من المستحيل أن يمرّ يوم دون أن نقرأ في الجرائد عن مقاهي ومشارب شلسي وأصحابها، ثم ها أنا ذا قد أصبح في مقدوري أن أتحقق من الأمر بنفسي.

وكان النور ضعيفاً في المقهى والرؤية فيه ليست جيدة، وكان معظم الرواد من الشباب. وقد بدت لي الفتيات قذرات كأغلب فتيات العصر، فهن يرتدين من الثياب أكثر من اللازم، وكنت قد لاحظت ذلك منذ أسبوعين وأنا أتناول الغداء مع بعض الأصدقاء. وكانت إحدى الجالسات على مقربة منّي ترتدي قميصاً من الصوف الأصفر ذا رقبة طويلة وتنورة سوداء وجوراباً من الصوف الأسود، وكان وجهها يلمع من كثرة العرق وتفوح منها رائحة الصوف المشرّب بالعرق، ومن الواضح أنها لم تغسل شعرها منذ أمد طويل، إلا أنه لو رآها أحد من أصدقائي لاعتبرها جميلة، أما أنا فلم أجد فيها شيئاً من الجمال، ولم تكُن بي غير رغبة واحدة هي أن أُلقي بها في حوض مملوء بالماء الساخن لتحكّ جسدها بالصابون بكل قوة. وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على أنني كنت بعيداً كل البُعد عن العصر الذي أعيش فيه، ولعل مرجع ذلك هو أنني كنت أقيم في الخارج. ثم تذكّرت بسرور تلك النساء الهنديات وشعورهن الجميلة وثيابهن الساحرة ذات الألوان الزاهية.

وفجأة ارتفعت صيحة تدلّ على الاحتجاج أيقظتني من تأملاتي الهادئة، فرأيت فتاتين جالستين إلى مائدة قريبة منّي تتقاذفان بعبارات نابية ويحاول صديقاهما تهدئتهما دون جدوى، ثم لم تلبث أن تعالت صيحاتهما وصفعت إحداهما الأخرى، فهبّت الأخيرة من مكانها كالملسوعة وسرعان ما اشتبكت مع غريمتها، ثم أخذت كل منهما تنعت الأخرى بأقبح السباب، ولم أدرِ شيئاً عن سبب شجارهما. وكانت إحداهما شقراء شعثاء الشعر، أما الأخرى فكانت سمراء ذات شعر جَعْد. وارتفعت صيحات الاستهجان والتشجيع من كل ناحية في المقهى، فقالت فتاة ثالثة: كفى وإلا تجمّع الناس وأقبل رجال الشرطة. قلت لكما كفى!

ولكن السمراء أمسكت بالشقراء من شعرها وجذبته بحنق قائلة: أيتها القذرة، يا سارقة الرجال!

- بل أنت القذرة!

فرّق لويجي وصديقهما بينهما، ثم لوّحت السمراء بزهو وانتصار بخصلتين كبيرتين من الشعر الأشقر في يدها ثم ألقت بهما أرضاً، وفي تلك اللحظة فُتح الباب وظهر على عتبته شرطي قال بعظمة ووقار: ما الأمر؟

فاتحد الجميع على الفور لمواجهة العدوّ وأجاب أحد الشابّين: لا شيء، لقد كنا نلهو.

وقال لويجي: أجل، إنهم يلهون فيما بينهم كما يلهو الأصدقاء.

ثم دفع الخصلتين بقدمه تحت المائدة، كما تبادلت الفتاتان الابتسام أمام عينَي الشرطي المتشكّكتين، ثم قالت السمراء بصوت

هادئ: سوف ننصرف، هلمّ بنا يا دوغ.

وكما لو كان الأمر مصادفة رأى بعض الرواد الآخرين أن ينصرفوا هم أيضاً في نفس الوقت، فتابعهم الشرطي بعينيه ولسان حاله يقول: "أنا لن أتعرّض لكم هذه المرة، ولكنني سوف أكون لكم بالمرصاد"، ثم انصرف ببطء. ودفع صديق الشقراء الحساب فقال لويجي يخاطب الفتاة وهي تلفّ وشاحاً حول عنقها: هل أنت على ما يرام؟ كيف طاوعها قلبها على انتزاع شعرك هكذا؟

فأجابت الفتاة بغير اكتراث قائلة: أنا لم أشعر بأي ألم. معذرة يا لويجي.

وابتسمت له ثم انصرفت هي وصديقها، ولم يعُد بالمقهى أحد غيري، فأخرجت محفظة نقودي من جيبي في حين قال لويجي بتقدير: إنها فتاة باسلة.

ثم أخذ مكنسته وأزال الشعر، فقلت أخاطبه: لا ريب أنها تألمت أشدّ الألم.

فقال لويجي: لو أنني كنت مكانها لما تمالكت نفسي من الصراخ، ولكن تومي فتاة شجاعة.

- هل تعرفها جيداً؟

- نعم، إنها تأتي إلى المقهى كل ليلة تقريباً، واسمها تومازينا توكرتون، ولكننا ندعوها تومي توكر، وهي ثرية واسعة الثراء؛ فقد ترك لها أبوها ثروة طائلة. إن أمرها غريب حقاً، فهي وإن كانت تأتي إلى شلسي إلا أنها تقيم في غرفة صغيرة في حيّ واندسورث بريدج، وتعيش مع جماعة من الفتيات على شاكلتها، وهذا يؤلم نفسي؛ فهن جميعاً على نصيب كبير من الثراء وفي مقدورهن شراء

كل ما يحلو لهن، بل إن في مقدورهن الإقامة في الريتز بصفة دائمة إذا شئن، ولكنهن يعشن عيشة كلها فوضى صخب.

- وهل تعيش أنت في الريتز إذا تسنّى لك ذلك؟

فأجاب لويجي قائلاً: أنا لست مجنوناً، فأنا أفضّل أن أستثمر أموالي.

ونهضت تأهباً للانصراف ثم سألته عن سبب العراك فقال: إن تومي استمالت إليها صديق لُو، وصدّقني إذا قلت لك إنه لا يستحق كل ذلك.

فقلت: ولكن هذا ليس رأي لُو.

فقال لويجي بتسامح: أجل، لأن لُو فتاة رومانسية.

* * *

بعد ذلك بنحو أسبوع قرأت اسماً في باب الوَفَيات بجريدة التايمز أثار اهتمامي، فقد رأيت فيها الإعلان التالي: «توكرتون، تُوفّيت في الثاني والعشرين من أكتوبر في عيادة فالوفيلد بأمبري توماز ينا آن البالغة من العمر عشرين ربيعاً، وهي الابنة الوحيدة للراحل النبيل توماس توكرتون بكارنغتون بامبرلي. تشييع الجنازة قاصر على الأهل والأقرباء، يرجى عدم إرسال الزهور».

فامتلأت نفسي حزناً ورثيت لتومي توكرتون. لقد انتهت بالنسبة إليها حياة الصخب والإثارة وطواها الثرى، ولكن من يدري؟ قد تكون هي المحقّة ولعلها أصابت حظها من الحياة، أما أنا فأُفسد حياتي بالطريقة التي أحياها بين الكتب بعيداً عن الناس.

ثم لم ألبث أن طرحت عن ذهني ذكر تومي توكرتون وكرّست

كل وقتي لرسائلي، وكان أهمها رسالة جاءتني من ابنة عمّي رودا دسبارد تسألني فيها أن أسدي لها خدمة، فانتهزت هذه الفرصة كي أتحرر من العمل، وخرجت فركبت سيارة أجرة أقلّتني إلى مسكن إحدى صديقاتي واسمها السيدة أرديان أوليفر، وهي كاتبة اشتُهرت بكتابة الروايات البوليسية.

* * *

فتحت لي الباب خادمتها ودعتني إلى الدخول قائلة: ادخل يا سيد مارك. إنها شديدة الانفعال هذا الصباح، ولا أدري ما بها. لعلك تساعدها على اجتياز محنتها هذه.

وكانت الغرفة التي تستعملها السيدة أوليفر مكتباً لها فسيحة جداً، وجدرانها مكسوة بالورق المزخرف برسم بديع لطيور جميلة ترقد في أعشاشها بين الأشجار. وعندما دخلت رأيت السيدة أوليفر تذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً بانفعال شديد وكأنها قاب قوسين أو أدنى من الجنون، وألقت إليّ نظرة سطحية بعيدة عن الاهتمام واستمرت في سيرها وهي تغلق عينيها وتفتحها ما بين لحظة وأخرى كما لو كانت تعاني ألماً لا يُحتمل، ثم سمعتها تحدّث نفسها وتقول: ولكن لماذا لا يذكر هذا الغبي أنه رأى تلك الببغاء؟ لقد رآها، ولا شك في ذلك، ولكنه إذا تكلّم عنها انهار كل شيء. لا ريب أنه توجد وسيلة حتماً، ولكن ما هي؟

ثم زفرت بقوة وأمسكت شعرها القصير بيديها الاثنتين وأخذت تجذبه بعصبية، ثم لم تلبث أن رأتني فقالت: صباح الخير يا مارك. أنا أوشك أن أُجَنّ!

وروت لي المشكلة التي تواجهها ثم استطردت قائلة: وتوجد مونيكا، وهي تثير حيرتي أيضاً؛ فكلّما حاولت معالجة أمرها ازداد

تعقيداً. إنها فتاة مغرورة حمقاء. مونيكا؟ أعتقد أن هذا الاسم غير مناسب. نانسي؟ أظن أن هذا الاسم أفضل. أم جوان؟ إن اسم جوان أصبح شائع الاستعمال، وكذلك آن. سوزان؟ ولكنني استخدمت هذا الاسم قبل ذلك. لوسيا؟ أظن أن هذا الاسم جميل، وهو أنسب وأوقع لتلك الفتاة الشقراء ذات الثياب السوداء.

ثم عادت السيدة أوليفر تقول: يسرّني أنك أتيت.

- هذا كرم منك.

- كان يمكن أن يكون القادم شخصاً غير مرغوب فيه، كامرأة حمقاء تريد منّي أن أفتتح سوقاً خيرية، أو مندوب شركة التأمين الذي يحاول أن يؤمّن على حياة خادمتي ويللي على الرغم من أنها ترفض ذلك رفضاً نهائياً، أو يكون القادم هو السمكريّ، أو يكون صحفياً يريد أن يأخذ منّي حديثاً ويلقي عليّ تلك الأسئلة التي تضايقني كل الضيق، مثل: "ما الذي جعلك تفكرين في الكتابة؟ وكم كتاباً كتبت؟ وهل ادخرت مبلغاً كبيراً من المال؟"... إلخ. وهي أسئلة لا أعرف الردّ عليها وتجعلني أبدو كالمجنونة، ولكن هذا لا يهمني إزاء مشكلة الببغاء.

فقلت: أجل، إن الإلهام يستعصي علينا أحياناً. قد يكون من الأفضل أن أنصرف.

- بل ابقَ يا مارك؛ فإن صحبتك تسرّي عنّي.

وتقبّلت هذه المجاملة المشكوك فيها في حين استطردت هي قائلة: هل تريد لفافة تبغ؟ إنها في مكان ما، لعلها في غطاء الآلة الكاتبة.

- إن معي علبتي، إليك واحدة. آه، نسيت أنك لا تدخنين.

– ولا أشرب الخمر أيضاً. قل لي: كيف يكون حال الرجل حين يقترف جريمة قتل؟ يخامرني إحساس بأنني ما إن أرتكب جريمة قتل حتى يفطن الجميع إلى ذلك.

– هذا سخف، لقد ارتكبتِ جرائم كثيرة.

– خمساً وأربعين جريمة قتل بالتمام والكمال. إن الجريمة أمر سهل في حدّ ذاتها، ولكن إخفاءها هو الأمر الأصعب، وهو أمر عسير بالنسبة إليّ بالذات ويكلّفني الكثير. لك أن تقول ما تشاء، ولكن ليس من العادة أن يجتمع خمسة أو ستة أشخاص في نفس المكان حين يُقتل «س»، ويكون لكل منهم دافع إلى قتله. إن «س» رجل بغيض إلى أكبر حد والجميع يتمنون موته، ولكن الشك ينحصر فيهم جميعاً.

– أنا أفهم ما تقولين، ولكنك عالجت ذلك خمساً وأربعين مرة، وسوف تفلحين في معالجتها مرة أخرى.

– هذا ما أردده لنفسي من وقت لآخر، ولكنني في كل مرة أجد صعوبة كبيرة في تنفيذ الجريمة وأتعذب عذاباً لا يُحتمل.

وجذبت شعرها مرة أخرى بقوة وعنف فصِحت بها قائلاً: كفى، ستنتزعين شعرك كلّه!

– لا، إن الشعر ثابت وليس من السهل انتزاعه كما تتصور، ولكنني عندما أُصبت بالحصبة وأنا في الرابعة تساقط شعري من مقدمة رأسي، وقضيت ستة أشهر حتى نما من جديد. هذا أمر فظيع بالنسبة إلى فتاة. وقد كنت في زيارة ماري ديلا فونتين أمس في المستشفى فرأيت شعرها يتساقط كما تساقط شعري وأنا طفلة صغيرة. لا بدّ أنها ستضع شعراً مستعاراً بعد شفائها لأنها في الستين

من عمرها، والشعر لا ينمو في هذه المرحلة من العمر عادة.

فقلت بشيء من الزهو شأن الرجل الذي عرك الحياة وعرف حلوها ومرّها: لقد رأيت فتاة تنتزع شعر غريمة لها في الليلة الماضية.

فسألتني السيدة أوليفر: في أي مكان حدث ذلك؟

- في أحد مقاهي شلسي.

- شلسي؟ هذا هو المكان الوحيد الذي يمكن أن يقع فيه كل شيء. أنا لا أتحدث عنه في كتبي أبداً لأنني أخشى أن لا أتمكّن من استخدام نفس الكلمات التي ينطقون بها هناك، ولكنني أودّ أن ترافقني إلى أحد المقاهي هناك ذات مرة، وذلك عندما تسنح لك الفرصة.

- كما تشائين. ما رأيك في الليلة؟

- لا؛ فأنا مشغولة بالكتابة اليوم، وإذا أردت الحقيقة أنا شديدة الجزع لعدم استطاعتي الكتابة. قل لي يا مارك، هل تعتقد أنه من الممكن قتل شخص من مكان بعيد؟

- ماذا تعنين؟ أتقصدين بواسطة ضغط أحد الأزرار مثلاً، أم بواسطة شعاع الموت؟

- لا، لا. أنا لا أقصد ذلك الخيال العلمي الذي يتكلّمون عنه في أيامنا هذه، ولكن...

وصمتت فجأة ثم عادت تقول بعد تفكير: أنا أقصد السحر الأسود الحقيقي.

- أتعنين تماثيل الشمع المرشوقة بالدبابيس؟

فقالت بازدراء: هذه أشياء قد مضى عهدها، ولكن توجد أمور عجيبة تقع الآن في أفريقيا وجُزر الهند الغربية، فلا حديث للناس اليوم إلا عن هؤلاء الذين يموتون فجأة. إنه نوع من الفودو. لا بدّ أنك تفهم ما أعنيه جيداً.

فقلت: إنهم ينسبون تلك الوقائع اليوم إلى قوة الإيحاء، فهم يذهبون إلى الشخص الذي يريدون قتله ويقولون له: "إن الطبيب الساحر قرّر موتك"، ثم يقوم العقل الباطن بالباقي.

فزفرت السيدة أوليفر بازدراء ثم قالت: لو أن بعضهم قال لي إن عليّ أن أرقد في انتظار الموت لبذلت كل ما في وسعي لمقاومة خططه.

فقلت ضاحكاً: ذلك لأن دهوراً من الشك الغربي تجري في دمائك.

- هذا معناه أنك تعتقد أن هذا ممكن الوقوع.

- أنا لا أعلم عن هذا الموضوع ما يكفي كي أُدلي برأيي، ولكن مَن الذي أوحى إليك بهذه الفكرة؟ هل عنوان روايتك الجديدة هو «جريمة قتل بالإيحاء».

- لا، يكفيني أن أستخدم سمّ الفئران أو الزرنيخ أو أي آلة حادة من تلك التي تُستعمل في القتل حقيقة لأنني لا أستخدم الأسلحة النارية أكثر من اللازم. لكنني لا أظن أنك قد أتيت اليوم كي تحدّثني عن كتبي، أليس كذلك؟

- بالطبع أنا لم آتِ لذلك. إن ابنة عمّي رودا دسبارد تقيم حفلة خيرية و...

- إطلاقاً، أنت لا تعلم ما حدث في الحفلة الأخيرة. لقد

تخيلنا وقوع جريمة قتل حقيقية، وأنا ما زلت مذهولة حتى الآن.

- ولكن الموضوع بعيد عن الجرائم هذه المرة، فكل ما قد يطلبونه منك هو التوقيع على مؤلفاتك نظير خمسة شلنات عن كل توقيع.

- إذا كان الأمر كذلك فأنا أوافق، ولكن ألا أتولى افتتاح الحفلة أو إلقاء كلمة من تلك الكلمات الحمقاء؟

فطمأنتها من هذه الناحية وأكّدت لها أنهم لن يطلبوا منها شيئاً من ذلك، ثم استطردت أقول متلعثماً: ولن تستغرق هذه الحفلة أكثر من ساعة أو ساعتين، وسوف يعقبها مباراة كريكيت ورقصات بريئة ومسابقة لعرض الأزياء و...

فقاطعتني السيدة أوليفر وصاحت قائلة بدهشة: شكراً يا صديقي، كرة كريكيت! طبعاً، إنه يراها من النافذة وهي ترتفع في الجوّ فينشغل بها ولا يرى الببغاء. إن الحظ هو الذي جاء بك الآن حقاً يا مارك، لقد كنت رائعاً!

- أنا لا أفهم شيئاً.

- هذا صحيح، ولكن لا وقت لدي كي أوضّح لك كل شيء. يسرّني جداً أنني رأيتك، ولكنني أودّ أن تنصرف الآن فوراً.

- حسناً، وماذا عن الحفلة؟

- سأفكر في الأمر، لا تزعجني الآن. أين وضعت نظارتي؟ لا أدري كيف تختفي حاجاتي بهذه الطريقة الغريبة!

* * *

الفصل الثاني

فتحت السيدة غيرارتي باب الأبرشية وسألت الغلام الذي رأته أمامها قائلة: ماذا تريد؟

فأجابها الغلام قائلاً: لقد أرسلتني السيدة كوبينز، صاحبة البيت رقم ٢٣ بشارع بنتال، وهي تقول إن في بيتها امرأة تُحتضَر وتطلب الأب غورمان.

فطلبت السيدة غيرارتي من الغلام الانتظار، وبعد نحو ثلاث دقائق جاءه كاهن طويل القامة متوسط العمر يحمل حقيبته في يده وقال له: أنا الأب غورمان يا بني. أتقول شارع بنتال؟ أليس هو الشارع المواجه لمخزن السكك الحديدية؟

- بلى، هو كذلك، وهو على بُعد خطوات.

وسارا في طريقهما جنباً إلى جنب، وكان الكاهن يمشي بخطوات كبيرة واسعة ثم عاد يقول: أتقول السيدة كوبينز؟ أهذا هو اسمها؟

- إنها صاحبة البيت، وهي تؤجرّه مفروشاً، وإحدى المقيمات لديها هي التي تريد أن تراك، وأظن أن اسمها السيدة دافيس. إنها إحدى أتباع مذهبك، أعني أنها كاثوليكية، وقد أصرّت على أن أدعوك أنت بالذات.

ثم أشار الغلام إلى بيت مرتفع أغبر اللون بين بيوت أخرى وقال: إنها تقيم في هذا البيت.

- ألن تدخل معي؟

- أنا لا أقيم في البيت. لقد أعطتني السيدة كوبينز شلناً كي آتي إليك.

- وما اسمك؟

- مايك بوتر.

- شكراً لك يا بوتر.

قال مايك: طاب يومك يا سيدي.

ومضى الغلام في طريقه وهو يصْفِر غير عابئ بشبح الموت الذي يخيّم على البيت. وفي تلك اللحظة فُتح باب البيت رقم ٢٣ وظهرت السيدة كوبينز، وهي امرأة متوردة الوجه، فرحّبت بالزائر بحماسة قائلة: تفضّل، تفضل. إن حالة المسكينة تزداد سوءاً، إن مكانها ليس هنا؛ إذ كان يجب أن تُنقل إلى المستشفى، وقد اتصلت بهم هاتفياً ولكن الله وحده يعلم متى يأتون. لقد تغيّر كل شيء في أيامنا هذه؛ وقد اضطُرّ زوج أختي إلى أن ينتظرهم ستّ ساعات عندما كُسرت ساقه، وهذا أمر مشين. ثم إنهم يدعونها جمعية الإسعاف، وإنهم يجمعون نقودك ولكن حين تحتاج إليهم...

وتقدّم الكاهن، وهي تتكلّم، إلى درَج ضيّق ثم قال: ماذا حدث لها؟

- لقد أُصيبت بالإنفلونزا ثم تحسّنت قليلاً، ولكنها خرجت قبل أن تبرأ تماماً، وعندما عادت أمس كانت ملامحها مقلوبة

فأرقدتها في فراشها، وأبت أن تأكل شيئاً كما أبت أن أستدعي طبيباً، ولكنني رأيت صباح اليوم أن حرارتها مرتفعة وأن الخطر قد زحف إلى رئتيها.

- إذن هذا التهاب رئوي.

فأطلقت السيدة كوبينز من بين شفتيها صَفيراً خافتاً كان بمثابة الردّ بالإيجاب، ثم فتحت باباً وأفسحت الطريق أمام الكاهن وهي تقول بابتهاج مصطنع: ها هو الكاهن قد أقبل، سوف تتحسنين الآن.

ثم أسرعت بالخروج وتقدّم الأب غورمان، وأدارت المرأة الراقدة فوق فراش على مقربة من النافذة رأسها بضَعف كبير وكان واضحاً أنها مريضة جداً، وتمتمت تقول على الفور بكلمات متقطعة: هل أتيت؟ لا يوجد متّسع من الوقت، لم أكُن أدري أن مثل هذا الشرّ موجود في الدنيا. يجب أن... يجب أن... لا يمكن أن أموت هكذا، أريد أن أعترف. إن الأمر خطير، بل شديد الخطورة.

وغشيت عينيها غشاوة وأفلتت من بين شفتيها كلمات لا معنى لها، فدنا الأب غورمان من الفراش وتكلّم كما سبق أن تكلّم قبل ذلك مئات المرّات، وعرف بكلماته التي تنطق بالقوة والإيمان كيف يُدخِل الهدوء إلى قلب المرأة المحتضَرة التي لم تلبث أن نسيت ألمها وعذابها وقالت: يجب أن توقف هذا الأمر الفظيع، يجب. فهل تفعل؟

فأجابها الكاهن مؤكّداً بقوله: اطمئنّي، سوف أبذل كل ما أستطيع.

وبعد قليل أقبل الطبيب ثم جاءت بعده سيارة الإسعاف، ولكن السيدة كوبينز استقبلتهما قائلة بلهجة الانتصار الكئيب: لقد تأخرتم كما هي العادة دائماً. لقد ماتت.

* * *

كان الأب غورمان يجتاز الشوارع المعتمة في طريقه إلى بيته، وكانت العتمة تزداد شيئاً فشيئاً والضباب ينتشر، ثم وقف لحظة وقد عبست أساريره قائلاً: يا لها من قصة غريبة مدهشة! ألا يمكن أن يكون للهذيان والحمى نصيب كبير فيها؟ إن فيها شيئاً من الحقيقة طبعاً، ولكن كيف السبيل إلى اكتشاف ذلك؟ مهما يكُن من أمر فمن المهم أن أسجّل الأسماء قبل أن أنساها، وفي مقدوري أن أقوم بالإجراءات اللازمة عندما أعود.

ورأى أمامه مقهى صغيراً فدخل وطلب قدحاً من القهوة، ثم جلس ودسّ يديه في جيب ردائه وقال: آه، يا للسيدة غيرارتي!

لقد نسيَت مرة أخرى أن تخيط بطانة ردائه، وبذلك تسلّل دفتره وقلمه ونقوده إلى آخر البطانة. ثم أفلح في استعادة قلمه الرصاص وقطعتين من النقود ولكنه لم يستطع إخراج الدفتر، وفي تلك اللحظة جاء الساقي بكوب القهوة الذي طلبه فطلب منه أن يأتيه بورقة فقال الساقي: هل تصلح هذه؟

وكانت الورقة عبارة عن قطعة من غلاف قديم رضي بها الأب غورمان وبدأ يكتب الأسماء كي لا ينساها لأنه كان سرعان ما ينسى الأسماء بالذات، ثم فُتح باب المقهى ودخل ثلاثة من الشبان فجلسوا وهم يصخبون. وبعدما فرغ الأب غورمان من تسجيل الأسماء طوى الورقة وهمّ بأن يضعها في جيبه فتذكر القَطع

الذي به فدسّها في أحد حذاءيه كما سبق أن فعل مراراً قبل ذلك، وعندئذ دخل أحد الرجال المقهى فجلس في مكان قصيّ بهدوء وسكون.

ورشف الأب غورمان جرعة من المشروب الباهت الخفيف الذي قُدّم إليه ثم دفع الثمن وخرج. وقد بدا على الرجل الذي دخل منذ لحظة أنه غيّر رأيه؛ فقد نظر إلى ساعته ثم أسرع إلى الخارج. وكان الضباب يزداد سمكاً وكثافة فأسرع الأب غورمان الخطى وكان يعرف الحيّ معرفة تامة، وأراد أن يختصر الطريق فانعطف إلى الشارع الضيق الذي يحاذي السكة الحديدية، ثم سمع وقع أقدام ولكنه لم يعِرها اهتماماً، ولماذا يفعل؟ وفجأة أصابته ضربة مطرقة دون أن يتوقع فترنّح ثم لم يلبث أن سقط.

* * *

دخل الدكتور كوريغان مكتب مفتّش الشرطة ليغون وهو يصْفِر بمرح ثم قال برقّة: لقد فرغت من تشريح الجثة.

- حسناً، وما النتيجة؟

- سأوفّر الاصطلاحات الفنية لقاضي التحقيق ويكفي أن أقول إن الضربة الأولى كانت قاتلة، ولكن القاتل لم يقنع بها فأتبعها بغيرها زيادة في التأكيد. إنها جريمة قذرة.

فقال ليغون: أجل، إنها كذلك فعلاً.

وكان ليغون رجلاً قوياً أسمر اللون داكن العينين له هيئة هادئة خادعة، وتكشف حركاته عن نشأته الفرنسية وتثير الدهشة في بعض الأحيان. وقال وهو يفكر: إنها جريمة بشعة حقاً، ولا يوجد ما يبرّرها إلا إذا كانت قد ارتُكبت بقصد السرقة.

فسأله الطبيب قائلاً: هل توجد سرقة؟

- هذا هو المفروض، فقد قُلبت كل جيوبه كما أن بطانة ردائه قد انتُزعت.

فقال كوريغان: لقد أخطأ القاتل حينما توقّع أن يجد مع الكاهن مبلغاً كبيراً من المال معه لأن أكثر الكهنة فقراء.

وقال ليغون: لقد حطموا رأسه زيادة في التأكيد. ليتني أعرف السبب!

فقال كوريغان: يوجد احتمالان، أوّلهما أن القاتل ربما كان رجلاً فاسقاً شرّيراً يقتل لا لشيء إلا حباً في القتل.

- وما الاحتمال الثاني؟

فهزّ الطبيب رأسه وأجاب قائلاً: شخص يحقد عليه.

ولكن ليغون هزّ رأسه وقال: هذا الاحتمال غير معقول؛ فقد كان الأب غورمان يتمتع بشعبية كبيرة، وكان محبوباً من جميع أتباع مذهبه، ولم يكُن له أي أعداء بشهادة الجميع، كما أنه من غير المعقول أن يكون الدافع هو السرقة، إلا إذا...

فسأله كوريغان: إلا إذا ماذا؟ هل اكتشفتم شيئاً؟

- الواقع أنه كان معه شيء أخفاه في حذائه.

فصَفَر كوريغان وقال: يبدو أنها جريمة تجسّس، أليس كذلك؟

فابتسم ليغون وقال: إن الأمر أبسط من ذلك؛ فقد كان جيبه مثقوباً. وقد استجوب الشرطي بِن المدبرة التي كانت تشرف على شؤون بيته، ويبدو أنها امرأة مهملة لم تكُن ترفو ثياب الكاهن

كما يجب أن تفعل، وقد اعترفت أن غورمان كان يدس رسالة أو قصاصة من الورق في حذائه حتى لا تتسلل إلى بطانة ثوبه.

- ألم يكُن القاتل على علم بهذا الأمر؟

- يبدو ذلك، هذا إذا فرضنا جدلاً أنه لم يكُن يريد سرقة نقوده وأنه كان يريد الحصول على هذه القصاصة القذرة بالذات.

- وماذا بها؟

ففتح المفتش ليغون دُرجاً وأخرج منه ورقة وهو يقول: بعض الأسماء.

ونظر كوريغان إلى الأسماء الموجودة بفضول وقرأ: «أورميرود، ساندفورد، باركنسون، هسكس ديبوا، شو، هارموند سوورث، توركوتون، كوريغان؟ ديلا فونتين؟».

فضاقت عيناه وقال: أرى أن اسمي بينها!

- هل يعني أي اسم آخر منها شيئاً بالنسبة إليك؟

- لا، طبعاً.

- ألم تلتقِ بالأب غورمان قطّ؟

- لم ألتقِ به من قبلُ قطّ.

- إذن لن تستطيع مساعدتنا كثيراً.

- ألديك فكرة عما تعنيه هذه القائمة؟

لم يُجِب ليغون على السؤال مباشرة وإنما قال: لقد ذهب غلام إلى الأب غورمان في نحو الساعة السابعة مساءً وقال له إنه توجد امرأة تُحتضَر وإنها تريده هو نفسه، فخرج الأب غورمان معه.

- وأين ذهب؟ هذا إذا كنت تعرف.

- لقد عرفنا ذلك بعد شيء من التحرّي. ذهب إلى البيت رقم ٢٣ بشارع بنتال، وهو بيت تملكه امرأة تُدعى السيدة كوبينز، أما المرأة التي كانت مريضة فتُدعى السيدة دافيس، وقد وصل الكاهن إلى البيت في الساعة السابعة والربع ومكث مع المريضة نصف ساعة، ثم ماتت السيدة دافيس قبل قدوم سيارة الإسعاف التي كان يجب أن تنقلها إلى المستشفى.

- حسناً، ثم ماذا؟

- ثم عرفنا أن الأب غورمان ذهب بعد ذلك إلى مقهى صغير من مقاهي الدرجة الثالثة، ولكنه مقهى لا غبار عليه، فطلب قدحاً من القهوة. وقد ذكر لنا توني، صاحب المقهى، أن الأب غورمان بحث في جيبه عن شيء فلم يجده، ثم طلب منه ورقة فأحضرها له، وهي هذه الورقة التي أمامنا.

- وماذا بعد ذلك؟

- عندما جاءه توني بالقهوة رآه يكتب شيئاً، وبعد لحظة انصرف دون أن ينهي قهوته تقريباً. وأنا شخصياً لا ألومه على ذلك؛ فقد كانت القهوة بغيضة المذاق. وقبل أن ينصرف وضع الورقة في حذائه.

- هل كان في المقهى أحد غيره.

- لقد دخل ثلاثة من الشبان وجلسوا إلى منضدة واحدة، ثم دخل رجل كهل وجلس إلى مائدة أخرى، وقد انصرف هذا الأخير دون أن يطلب شيئاً.

- وهل تبع ذلك الرجل الكاهن؟

– هذا جائز. إن توني لم يرَه وهو ينصرف، وكذلك لم يلحظ عليه ما يلفت نظره، وقد قال عنه إنه رجل كغيره من هؤلاء الرجال العاديين الذين لا يهتم بهم أحد. ويعتقد توني أنه رجل متوسط القامة، وأنه كان يرتدي معطفاً أزرق أو أسمر، وشعره لا هو بالأشقر ولا هو بالأسود. ولكن ليس لدينا سبب يجعلنا نعتقد أن له دخلاً في هذه الجريمة، وهو لم يأتِ حتى الآن، فقد طلبنا من كل الأشخاص الذين رأوا الكاهن فيما بين الثامنة إلا الربع والثامنة والربع أن يتصل بنا، ولكن لم يتقدم إلينا غير امرأة وصيدلي تقع صيدليته في نفس الحي، وسأقابلهما بعد لحظات. وقد عثر شابان على الجثّة في الثامنة والربع في شارع وست، وهو شارع ضيق تحدّه قضبان السكة الحديدية.

فهز كوريغان رأسه ونقر على الورقة وقال: وما رأيك أنت؟

فأجابه ليغون قائلاً: أعتقد أن لهذه الورقة أهمية كبيرة.

– هل ذكرَت له المرأة المحتضَرة شيئاً حمله على أن يدوّن هذه الأسماء قبل أن ينساها؟ ولكن أتراه كان يفعل ذلك لو أن المرأة طلبت منه الكتمان والاحتفاظ بسرّية الاعتراف؟

فقال ليغون: لا يوجد ما يؤكّد لنا ذلك. لنفرض أن هؤلاء الأشخاص الذين دوّن أسماءهم تربط بينهم عملية تهديد.

– أهذا هو رأيك؟

– لا، أنا لم أكوّن لي رأياً بعد، إنه مجرّد افتراض، وقد يكون هؤلاء الأشخاص ضحايا ابتزاز أموال. ومَن يدري؟ قد تكون المرأة المحتضَرة هي نفسها التي مارست هذا التهديد، أو قد تكون على علم به ثم أخذها الندم فيما بعد فاعترفت بما جنت وطلبت من

الأب غورمان أن يتولى إصلاح الأمور.

- وماذا بعد ذلك؟

- كل ما يتبقى بعد ذلك لا يعدو مجرّد افتراض، ولا ريب أن العملية كانت مربحة جداً وأن القاتل لم يشأ أن يتوقف، ولا ريب أنه عرف أن السيدة دافيس تُحتضر وأنها طلبت كاهناً فلم يجد بداً من أن يفعل ما فعل.

فقال كوريغان وهو يفحص الورقة: ولكن ما معنى علامة الاستفهام أمام الاسمين الأخيرين؟

- لعل الأب غورمان لم يكُن واثقاً من صحّتهما.

فعبس الطبيب وقال: ربما أراد أن يكتب موليغان بدلاً من كوريغان مثلاً، ولو صحّ هذا الأمر فإنه يكون معقولاً، ولكن اسم ديلا فونتين من الأسماء التي لا يمكن أن ينساها المرء بسهولة. ومن الغريب أنه لا يوجد أي عنوان. ثم عاد يقرأ الأسماء من جديد وقال: باركنسون، هذا اسم شائع ويوجد مئات يحملونه، وساندفورد اسم غير مألوف، أما هسكس ديبوا فهو غريب لم أسمع به من قبل.

وبحركة مفاجئة أمسك بدليل الهاتف وأخذ يقلب صفحاته وأخيراً قال: آه، إنه موجود في الدليل، السيدة هسكس ديبوا، ٤٩ ميدان أسمير. ما رأيك في أن نتصل بها؟

- وماذا نقول لها؟

فأجاب الطبيب بابتهاج: سوف نرى ذلك فيما بعد.

قال ليغون: افعل ما بدا لك.

فحدق كوريغان إليه قائلاً: ماذا تعني؟

فأجاب ليغون برفق: افعل ما تريد، ولا تنظر إليّ بدهشة هكذا.

وأخذ السمّاعة بنفسه وقال: أعطني الخط الخارجي. ثم نظر إلى كوريغان وسأله: ما هو الرقم؟

- غروسفينور ٦٤٥٧٨.

فذكر الرقم لعامل الهاتف ثم ناول السماعة لكوريغان قائلاً: يمكنك أن تلهو كما يحلو لك.

فنظر كوريغان إليه بشيء من الحيرة والسماعة في يده، ثم سمع الجرس يرنّ أكثر من مرة قبل أن تردّ عليه امرأة وتقول لاهثة: مرحباً.

- هل أتكلّم مع السيدة هسكس ديبوا؟

- لا، أنا...

فتجاهل الطبيب تردّد المرأة وقال: هل أستطيع أن أتحدث إليها؟

- لا؛ إن السيدة هسكس ديبوا ماتت في إبريل الماضي.

- آه!

دهش كوريغان وتجاهل سؤال المرأة: "مَن المتحدث؟"، وأعاد السماعة مكانها برفق ونظر إلى المفتّش ليغون ببرود وقال: ألهذا السبب تركتني أتكلّم؟

فابتسم ليغون بخبث وقال: الواقع أننا لا نهمل شيئاً.

فقال كوريغان بتأمّل: في إبريل الماضي، أي منذ خمسة أشهر.

خمسة أشهر انقضت على آخر محاولة لابتزاز أموالها بالتهديد. تُرى هل انتحرت؟

- لا، لقد أُصيبت بورم خبيث في المخّ تسبّب في موتها.

فقال كوريغان وهو ينظر إلى الورقة: يجب أن نبدأ من جديد إذن.

فتنهّد ليغون وقال: نحن لا ندري إذا كان لهذه القائمة دخل في هذه الجريمة أم لا. لعلها جريمة قتل عادية ارتكبها القاتل مستتراً بالضباب، وإذا لم يخدمنا الحظّ فلا أمل لنا في الاهتداء إليه.

فقال الدكتور كوريغان: هل يوجد ما يمنع من أن أستمرّ في دراسة هذه القائمة؟

- افعل ما تشاء، وأتمنى لك التوفيق.

- معنى هذا أنك تعتقد أنني لن أعثر على شيء. دعك من هذا الاعتقاد، سوف أركّز كل اهتمامي على كوريغان هذا سواء كان رجلاً أو امرأة، وسأعرف سبب علامة الاستفهام الموضوعة أمام اسمه.

* * *

الفصل الثالث

– الحق أنني لا أرى يا سيد ليغون ماذا أستطيع أن أفعل أكثر من هذا. لقد ذكرت كل شيء للشرطي ولا أعلم مَن هي السيدة دافيس ولا من أين جاءت. لقد أقامت عندي ستة أشهر وكانت تدفع الإيجار بانتظام وكان يبدو أنها امرأة هادئة محترمة، ولا أعرف أكثر من هذا.

وصمتت السيدة كوبينز ريثما تلتقط أنفاسها في حين ألقت إلى المفتش ليغون نظرة متسائلة فقابل المفتش نظرتها بابتسامة رقيقة حزينة طالما أتت بثمارها قبل ذلك ثم استطردت قائلة: وددت لو أستطيع أن أقدّم لك كل ما يمكنني من عون ومساعدة.

– شكراً لك، نحن بحاجة إلى مساعدتك فعلاً لأن للنساء غريزة أقوى من غريزة الرجال.

وكانت مناورة بارعة أتت بثمارها فعلاً فقالت: آه، وددت أن يسمعك السيد كوبينز! إنه شديد العجرفة والغرور دائماً ويزعم أنه يعرف كل شيء، ولكنه لا يلبث أن يعترف بأنني على حق في معظم الأمور.

– لهذا أريد أن أعرف رأيك في السيدة دافيس. هل تعتقدين أنها كانت غير سعيدة؟

- الآن بعدما أثَرت هذه النقطة فإنني لا أعتقد ذلك. لقد كان يبدو أنها تحبّ العمل والنظام وأنها كانت تعيش حسب برنامج خاص وضعته لنفسها، وقد فهمت منها أنها كانت تعمل بإحدى الشركات التي تقوم بالبحوث والإحصائيات الخاصة بالاستهلاك العام، فكانت تطرق الأبواب وتسأل الناس عن نوع الصابون الذي يستعملونه والدقيق والميزانية التي يطبّقونها في المعيشة كل أسبوع، وقد شعرت أن مثل هذا العمل ما هو إلا ضرب من التطفّل والفضول، فما حاجة الحكومة أو أيّ فرد آخر إلى مثل هذه المعلومات والإحصائيات؟ ومع ذلك فإن المؤسسات والشركات تتسابق في هذا المضمار! وإذا جاز لي أن أقول شيئاً فإنني أقول إن السيدة دافيس كانت تؤدي عملها على أكمل وجه وبطريقة عملية واقعية بعيدة عن الفضول والتطفل.

- هل تعرفين اسم الشركة التي كانت تعمل بها؟

- لا.

- ألم يحدث أن ذكرت أمامك اسم أحد من أقربائها؟

- نعم، لم تذكر أي أسماء قطّ، ولكنني فهمت من حديثها معي أنها أرملة فقدت زوجها منذ سنوات طويلة وأنه كان عاجزاً، ولكنها لم تكُن تتحدث عنه كثيراً.

- ألم تقُل لك من أين جاءت أو أين كانت تقيم قبل ذلك؟

- لا أعتقد أنها من لندن، وأظنها من أهل الشمال.

- ألم يحدث أن خامرك إحساس بأن في أفعالها شيئاً من الغموض؟

- نعم، فقد كانت كل أفعالها وأقوالها طبيعية جداً، ولكن

الشيء الوحيد الذي أثارني كثيراً هو حقيبتها؛ فقد كانت من نوع جيّد ولكنها لم تكُن جديدة، أما الحرفان اللذان يميزانها فقد حاولت أن تمحوهما ووضعت مكانهما حرفين آخرَين هما «ج. د.»، وهما أول حرفين من اسمها جيمس دافيس، أما الحرفان الآخران فكانا «م. هـ.»، وقد يكون الحرف الأخير «ن»، فأنا لست واثقة. وقد خطر لي أنها ربما اشترت الحقيبة مستعملة وغيّرت الحرفين اللذين كانا عليها قبل ذلك، كما أنه لم يكُن معها متاع كبير، لم يكُن معها غير تلك الحقيبة.

كان ليغون يعرف هذه النقطة، فلم يكُن لدى المرأة الميتة متاع كثير، كما أنها لم تحتفظ لديها بأية رسالة أو أية صورة، وكان واضحاً أنها لا تملك وثيقة تأمين ولا دفتر شيكات، كما كانت ثيابها بسيطة ولكنها من نوع جيد وتكاد تكون جديدة. ثم أعاد قوله قائلاً: وتعتقدين أنها لم تكُن سعيدة، أليس كذلك؟

- بلى، أظن ذلك.

وأثارته رنة الشك في صوتها فقال: ألست واثقة؟

- حسناً، ليس هذا بالشيء الذي يخطر لي أن أفكر فيه لأنها كانت تعمل بوظيفة محترمة وتعيش عيشة مريحة مُرضية ولم تكُن تحب المظاهر، ولكنها عندما وقعت فريسة للمرض...

وصمتت فقال ليغون يستحثها: ماذا حدث؟

- بدا عليها الاستياء والكدر في بادئ الأمر حين أصيبت بالإنفلونزا؛ فقد انهارت كل مشروعاتها رأساً على عقب وضاعت عليها مواعيدها. ولكن الإنفلونزا هي الإنفلونزا، وقد اضطُرّت إلى ملازمة الفراش، وكانت تعدّ الشاي بنفسها وتتناوله مع أقراص

الأسبرين. ثم اقترحت عليها أن أدعو الطبيب ولكنها أبت قائلة إن الإنفلونزا ليست بحاجة إلى طبيب وإن في مقدورها أن تُعنى بنفسها. وعندما تحسنت صحتها بعض الشيء أعددت لها قليلاً من الطعام، وكانت بادية الإعياء، ولكن كان هذا أمراً طبيعياً بعد هبوط الحمى. وقد قالت لي ذات مرة: وددت لو أنني لم أجد متسعاً من الوقت للتفكير؛ فأنا لا أحبّ التفكير لأنه يؤرقني دائماً.

كان المفتش ليغون يصغي إليها باهتمام كبير، فاستطردت تقول بحماسة: وقد أعرتها بعض المجلات ولكنها لم تهتم بالقراءة، وأذكر أنها قالت لي ذات مرة: "إذا لم تكُن الأمور كما يجب أن تكون فمن الخير أن لا يعرف الإنسان ذلك، أليس كذلك؟"، فأجبتها قائلة: "هذا صحيح"، فاستطردت تقول: "أنا لا أدري، لم أكُن واثقة قطّ"، ولما قلت لها إن كل شيء على ما يرام أردفت تقول: "أنا لم أُقدِم على عمل غير شريف في حياتي، ولا يوجد ما يمكن مؤاخذتي عليه"، فطمأنتها بقدر ما استطعت، ولكنني أظن أن الشركة التي كانت تعمل بها أقدمت على تزييف حساباتها مثلاً، وعندما عرفت المرأة المسكينة ذلك قالت لنفسها إن هذا لا يعنيها.

فقال ليغون: هذا جائز.

- على كل حال إنها كانت قد شُفيت أو أوشكت على الشفاء وعادت إلى عملها، وقد قلت لها إنها عجّلت بالخروج وإنها يجب أن تستريح يوماً أو يومين آخرَين. وقد كنت على حق؛ فقد عادت في اليوم التالي وقد ارتفعت درجة حرارتها وصعدت الدرَج بمشقة كبيرة، فعرضت عليها أن آتيها بطبيب ولكنها رفضت مرّة ثانية. ثم ازدادت حالتها سوءاً، فقد ذوَت عيناها واحمرّت وجنتاها وتعذّر

عليها التنفس. وفي مساء اليوم التالي همست لي قائلة: "أريد كاهناً الآن، قبل أن أموت"، وطلبت كاهناً كاثوليكياً بالذات، ولم يكُن قد خطر لي أنها كاثوليكية لأنني لم أرَها تلبس شيئاً يدل على ذلك.

أصغى ليغون إليها بهدوء ولم يقُل إنهم وجدوا ما يدل على أنها كاثوليكية في حقيبتها، فاستطردت المرأة قائلة: ورأيت مايك الصغير في الشارع فأرسلته كي يستدعي الأب غورمان، ثم اتصلت بالطبيب والمستشفى على مسؤوليتي الخاصة دون أن أخبرها بذلك.

- هل ذهبت بالكاهن إلى غرفتها مباشرة عندما أقبل؟

- نعم، وتركتهما معاً.

- هل نطق أحدهما بأي شيء؟

- الحق أنني لا أذكر على وجه التحديد؛ فقد تكلمت أنا نفسي وقلت لها إن الكاهن أقبل وإن صحّتها سوف تتحسن وحاولت أن أبثّ البهجة والمرح فيها، ولكنني أذكر أنها تحدثت عن الشرّ وأنا أغلق الباب. نعم، كما ذكرت شيئاً عن حصان، لعله فرس من جياد السباق. أنا نفسي أراهن بنصف جنيه من وقت لآخر، ولكنني سمعتهم يقولون إن السباق خدعة وحيلة غير شريفة.

فقال ليغون وقد أثارته الكلمة: الشرّ؟!

- لا ريب أنها أرادت أن تعترف بخطاياها قبل أن تموت.

لم يشك ليغون في أن الأمر غير ذلك، ولكن الكلمة أهاجت خياله فكرّرها قائلاً: الشرّ؟

لا ريب أنه نوع معيّن من الشرّ، ما دام الكاهن الذي وقف عليه قد تعقّبه بعضهم وقتله.

* * *

لم يكُن أحد من السكان الثلاثة الآخرين يعلم شيئاً عن السيدة دافيس تقريباً. كان اثنان منهم يقيمان في البيت منذ سنوات، أحدهما موظف بمصرف والآخر كهل يعمل في أحد محالّ الأحذية، أما الساكن الثالث فكانت فتاة في الثانية والعشرين أقبلت إلى المدينة منذ وقت قصير، وهي تعمل في أحد المحالّ التجارية في نفس الحيّ، وكانوا كلهم لا يعرفون شيئاً عن السيدة دافيس.

أما المرأة التي ذكرت أنها رأت الأب غورمان في الشارع في تلك الليلة فلم تقدّم من المعلومات إلا النزر اليسير، فقد كانت امرأة كاثوليكية وتعرف الأب غورمان، وقد رأته يسير في شارع بنتال ويدخل مقهى توني في نحو الساعة الثامنة إلا عشر دقائق، أما السيد أوسبورن فكان رجلاً متوسط العمر أصلع الرأس ذا وجه مستدير تبدو عليه أمارات السذاجة ويرتدي نظارة، وقد قال للمفتش: مساء الخير أيها المفتش، هل لك أن تأتي معي إلى مؤخّرة الصيدلية؟

ورفع مصراع الطاولة التي تتوسط الصيدلية ومرّا بشاب يملأ بعض الزجاجات بالأدوية بخفّة ونشاط يدلان على خبرته في مثل هذا العمل، ثم مضيا إلى مدخل أفضى بهما إلى غرفة صغيرة بها مقعدان ومنضدة ومكتب. وأغلق السيد أوسبورن ستارة المدخل خلفهما ثم جلس على أحد المقعدين وأشار إلى ليغون يدعوه إلى الجلوس، ثم مال نحوه وقال وعيناه تبرقان سروراً لفرط انفعاله: الواقع أنني أستطيع أن أؤدي لك خدمة كبيرة، فإن العمل لم يكُن

كثيراً بالصيدلية في تلك الليلة لأن الطقس كان رديئاً، ولم يكُن موعد انصراف البائعة التي تعمل عندي قد أزف بعدُ لأننا لا نغلق الصيدلية يوم الخميس عادة قبل الساعة الثامنة، وكان الضباب آخذاً في الانتشار، كما تنبأت النشرة الجوية بذلك، والشارع خالياً من المارّة، وكنت واقفاً بالباب أفكر في تقلبات الجوّ، ثم لم ألبث أن رأيت الأب غورمان يسير في الناحية الأخرى من الشارع، وأنا أعرفه جيداً. ما أبشع هذه الجريمة! كيف يقدِمون على مثل هذا العمل الوحشي؟ وكان الأب غورمان يسير في طريقه إلى شارع وست، وهو أول شارع على اليسار قبل طريق السكة الحديدية، ثم رأيت رجلاً آخر يسير خلفه على مسافة غير بعيدة، وما كنت لألحظه لو لم يتوقف أمام الصيدلية فجأة، فتساءلت: لماذا توقف هكذا؟ وعندما رأيت أن الأب غورمان قد أبطأ في السير أبطأ هو الآخر، وكان مستغرقاً في أفكاره بحيث بدا لي أنه نسي أنه يمشي، ولكنه لم يلبث أن استأنف سيره، فتبعه الرجل الآخر على الفور فقلت لنفسي: لا شك في أنه يعرف الأب غورمان ويريد اللحاق به كي يتحدث إليه.

- أليس من الجائز أنه كان يتعقبه فعلاً؟

فأجاب أوسبورن: بل هذا هو ما أعتقده الآن، ولكنني لم أفطن إلى هذه الحقيقة في ذلك الوقت. ولم تمرّ لحظات حتى غابا عن بصري وابتلعهما الضباب.

- هل يمكنك أن تذكر لي أوصاف ذلك الرجل؟

وكانت لهجة ليغون لا توحي بالثقة؛ فقد كان ينتظر أن يسمع أوصافاً غير محددة، ولكن السيد أوسبورن كان من طراز آخر غير طراز توني، صاحب المقهى، لأنه قال بسرور: حسناً، لقد كان

طويل القامة، بين خمس وست أقدام تقريباً، له كتفان متهدّلتان وتفّاحة آدم بارزة، وكان شعره الأشيب يظهر من تحت قبعته، وله أنف كالمنقار، وطبعاً لم ألحظ لون عينيه لأنني لم أرَ وجهه إلا من الجانب. وقد بدا لي من هيئته أنه يناهز الخمسين من عمره لأنه لو كان شاباً لاختلفت مشيته وحركاته.

وقدّر ليغون في ذهنه المسافة التي تفصل الصيدلية عن الرصيف المقابل فلم يسعه إلا أن يعجب بينه وبين نفسه لأن مثل هذا الوصف الدقيق الذي ذكره الصيدلي كان يمكن أن يكون ثمرة خيال خصب، وليست هذه أول مرة يحدث فيها هذا، ولكن الناس تذكر وضعاً معيّناً للقاتل عادة ويجيء هذا الوصف طبقاً لما يحلو لهم، فهو أحياناً كث الحاجبين ضخم الفكين، ولكن الوصف الذي أدلى به السيد أوسبورن بدا كما لو كان مطابقاً لشخص حقيقي، وفي هذه الحالة بالذات يكون أوسبورن شاهداً مثالياً، ولكن ليغون لم يلبث أن تذكر أن المسافة بين الصيدلية والرصيف المقابل لها كبيرة فقال: هل تظن أن في مقدورك أن تعرف ذلك الرجل إذا رأيته؟

فأجاب أوسبورن بثقة قائلاً: نعم، فأنا لا أنسى وجهاً رأيته أبداً، وهذه إحدى هواياتي. وكنت أحدث نفسي فأقول إنه لو جاءني رجل واشترى منّي لفافة زرنيخ واستخدمه في قتل زوجته فإنني أستطيع أن أشهد بذلك عند محاكمته، وكان الأمر يراودني دائماً بأن شيئاً كهذا قد يقع في يوم من الأيام.

- ولكن هذا لم يحدث بعدُ، أليس كذلك؟

فهزّ السيد أوسبورن رأسه بالإيجاب واستطرد قائلاً: وأظنه لن يحدث إطلاقاً لأنني بِعت الصيدلية وحصلت على ثمن مناسب

لها، وسأعتزل العمل وأقيم في نورفولك.

- يبدو لي أن صيدليتك هذه مشهورة.

فأجاب أوسبورن وفي صوته نبرة من الجدّ: أجل. لقد ورثتها عن أبي وجدّي من قبل، وهي عمل تجاري ناجح، ولكنني لم أنظر إليها بعين الرضا والارتياح وأنا شاب لأنني كنت مولعاً بالمسرح كغيري من الشبان، وكنت مؤمناً بموهبتي في التمثيل، ولم يحاول أبي أن يعترض طريقي فقال لي: "افعل ما يحلو لك يا بنيّ، ولكنك سوف تفتقر إلى الموهبة"، وقد كان على حق، فإن الأمر لم يزِد عن أكثر من ثمانية عشر شهراً عدت بعدها إلى الاهتمام بالصيدلية. وقد شعرت بالفخر بها؛ فقد كانت تزخر دائماً بأجود أنواع الأدوية، أما اليوم...

وهزّ رأسه بأسى ثم استطرد قائلاً: أما اليوم فقد أصبحت هذه التجارة عملاً مهيناً بالنسبة للصيدلي؛ فلا بدّ له أن يبيع أدوات التجميل إلى جانب الأدوية لأنها تأتي بنصف الأرباح، مثل المساحيق وأحمر الشفاه وأكياس الإسفنج المزخرفة. أنا لا أقرب هذه الأصناف وأتركها للبائعة التي تعمل عندي. لا، ليس هذا عمل الصيدلي الذي اعتدت عليه، ومهما يكُن فقد ادخرت مبلغاً كافياً من المال وبِعت الصيدلية بثمن مناسب ودفعت القسط الأول من ثمن فيلاّ صغيرة جميلة في بورنموث.

وصمت برهة ثم استطرد قائلاً: يجب أن يعرف المرء متى يعتزل العمل كي يستطيع الاستمتاع بالحياة. إن لي هوايات كثيرة أهمها الفراشات وأبراج الحمام وأعمال البساتين، فلدي مجموعة كبيرة من الكتب التي تتكلم عن الفلاحة والزراعة، هذا إلى جانب أنني أهوى الرحلات والأسفار، وقد أقوم برحلة أزور فيها الخارج

قبل فوات الأوان.

نهض ليغون وقال: حسناً، أتمنى لك حظاً سعيداً. إذا رأيت ذلك الرجل قبل أن تغادر المدينة...

فقاطعه الرجل قائلاً: سأخبرك بذلك على الفور يا سيد ليغون. يمكنك أن تعتمد عليّ، وسوف يكون ذلك متعة لي. إن لي ذاكرة جيدة كما قلت لك، وسوف أكون حذراً يقظاً. نعم، يمكنك الاعتماد عليّ فإنه يسرّني أن أفعل ذلك.

* * *

الفصل الرابع

(برواية مارك إيستربروك)

خرجتُ من مسرح الأولدفيك وبرفقتي صديقتي هرميا روكليف بعد أن شاهدنا مسرحية ماكبث، وكان المطر يهطل بغزارة فأسرعنا نحو المكان الذي تركت فيه سيارتي. قالت هرميا والسيارة منطلقة بنا: هل سنتناول طعام الإفطار في دوفر؟

– دوفر؟ يا لها من فكرة غريبة! نحن في طريقنا إلى مطعم فانتازيا كما تعلمين لأنني أشعر دائماً بحاجتي إلى الطعام الشهي بعد مشاهد ماكبث الدامية. إن شكسبير يثير أعصابي دائماً.

– هذا صحيح، ويثيرني فاغْنَر أيضاً. ومن الواضح أن الشطائر التي نتناولها في الاستراحة لا تكفي لتهدئة الأعصاب، ولكن سؤالي عن دوفر فلأنني أراك منطلقاً في اتجاهها.

فقلت: ذلك لأنني أبحث عن مكان أستطيع أن أستدير فيه بالسيارة.

– ولكنك تركت خلفك أماكن كثيرة كان في مقدورك أن تستدير فيها.

صديقتي هرميا روكليف شابة في الثامنة والعشرين من عمرها،

ترتدي ثيابها على الطريقة اليونانية وتلفّ شعرها الكستنائي في حلقة كبيرة تعقصها خلف ظهرها. ولم تكُن أختي تتحدث عنها إلا بقولها: «فتاة مارك»، وكانت تقول ذلك بطريقة تثير أعصابي دائماً.

قوبلنا في فانتازيا مقابلة حارّة وأُعِدّت لنا منضدة صغيرة بجوار جدار تغطيه ستارة من الحرير الأحمر. وكان مطعم فانتازيا يتمتع بشهرة كبيرة والموائد فيه كثيرة متجاورة، وكان صديقي دافيد أردنغلي، وهو أستاذ يقوم بتدريس مادة التاريخ في جامعة أُكسفورد، يجلس إلى مائدة بجواري ومعه إحدى صديقاته، وهي فتاة على جانب كبير من الجمال شعرها مصفوف بطريقة جميلة ولها عينان زرقاوان وثغر باسم غير مغلق طَوال الوقت، ولكن كان يبدو من مظهرها أنها على درجة كبيرة من الغباء، أما دافيد نفسه فكان يتمتع بذكاء خارق، وكان لا يجد راحته إلا في صحبة الفتيات الساذجات. قال يخاطبني: هذه صديقتي المفضلة بوبي. بوبي، أقدّم لك صديقَيّ مارك وهرميا. لقد خرجنا لتوّنا من إحدى المسرحيات الهزلية، وأراهن أنكما خارجان لتوّكما من إحدى مسرحيات شكسبير.

فقالت هرميا: لقد شاهدنا ماكبث على مسرح الأولدفيك.

- وما رأيك في إخراج باترسون؟

- إنه إخراج رائع، كما كانت الإضاءة جيدة، ولم يسبق أن رأيت مشهد الوليمة بمثل هذه الروعة.

- وما رأيك في مشهد الساحرات؟

فأجابت هرميا قائلة: لقد كان مشهداً بشعاً كما هو الحال دائماً.

ووافقها دافيد على ذلك وقال: لقد كان المُخرج قديراً، استطاع بهذا المشهد أن يُحدِث الأثر المطلوب في الجمهور. والحق أن الإنسان حسّاس بطبعه، تثير قوى الشرّ مشاعره بسرعة.

فضحكنا جميعاً. وكان دافيد سريع الملاحظة فلاحظ أن ضحكتي تختلف في معناها عن ضحكات الآخرين، فنظر إليّ بحدة وقال: ما الأمر؟

- لا شيء، إنه نفس ما خطر لي أول أمس في أحد مقاهي شلسي.

- مرحى يا مارك! إنك تستمتع بالحياة حقاً، فشلسي تزخر بالوارثات اللاتي يرتدين الثياب الضيقة ويتزوجن بالشباب الهيبيين. كان يجب أن تعيش بوبي في هذا الحيّ، أليس كذلك يا صديقتي؟

فاتسعت عينا بوبي واحتجّت قائلة: أنا أمقت شلسي وأحب فانتازيا أكثر، فهو أجمل والطعام فيه أشهى وألذّ.

- حسناً يا بوبي، مهما يكُن من أمر فأنت لست من الثراء بحيث تتمكّنين من مخاطبة القوم في شلسي. زدني حديثاً عن ماكبث والساحرات البشعات يا مارك. لو أُتيح لي إخراج هذه المسرحية لعالجت مشهد الساحرات بطريقة أخرى تتوافق مع العصر الذي نعيش فيه.

فقالت بوبي: ولكن لم يعُد للساحرات وجود في أيامنا هذه.

- هكذا تعتقدين لأنك تعيشين في لندن، ولكن لا يزال في كل قرية ساحرتها، وفي قريتي بالذات تعيش السيدة بلاك العجوز في الكوخ القائم فوق التلّ، وأهل القرية يوصون أولادهم بعدم

إزعاجها ويقدّمون إليها البيض والفطير، وإذا اتفق واعترض البعض طريقها فإن بقرته لا تدرّ لبنها ولا ينمو الزرع في حقله وتلتوي ساق ابنه، وهو يعرف أن الساحرة هي السبب في كل ما يقع له، وإن كان لا يجهر بذلك لأحد.

فقالت بوبي: لا شك في أنك تمزح.

- بالطبع لا، أليس كذلك يا مارك؟

فقالت هرميا متشكّكة: كل هذه الخرافات انقرضت تماماً مع اتساع الثقافة.

- ولكنها لم تنقرض في الريف. ما رأيك يا مارك؟

فأجبت ببطء قائلاً: أظن أنك على حق، ولكنني لست واثقاً من ذلك لأنني لم أعِش في الريف كثيراً.

وقالت هرميا عائدة إلى ملاحظة دافيد السابقة: لا أفهم كيف تستطيع إسناد أدوات الساحرات إلى نساء عاديات تقدّم بهن العمر، لا بدّ أن يكون لكل منهن شخصية جبارة خارقة.

- ولكنهن لسن بحاجة إلى أكثر من التظاهر بالجنون، فإن المرء الذي يثور ويهذي وقد اختلط القشّ بشعره، أعني أن المرء الذي يتظاهر بالجنون ليس فيه ما يخيف. أذكر أنني ذهبت برسالة إلى طبيب في إحدى المصحّات ذات مرة، وانتظرت في غرفة مع سيدة عجوز كانت تشرب كوباً من اللبن، وقد أبدت لي بعض الملاحظات الغريبة بخصوص الطقس، ثم انحنت فجأة وسألتني بصوت خافت قائلة: "أهو ابنك المسكين الذي دفنوه خلف الموقد؟"، ثم هزّت رأسها واستطردت قائلة: "الساعة الآن الثانية عشرة وعشر دقائق، كل يوم في هذا الموعد، ولكن تظاهر بأنك

لا ترى الدم"، وكانت لهجتها العادية هي التي جعلت الدم يتجمد في عروقي.

فقالت بوبي متسائلة: وهل دُفن أحد خلف الموقد حقاً؟

ولكن دافيد لم يعِرها اهتماماً واستطرد قائلاً: وانظر إلى المرأة التي تقوم بدور الوسيط مثلاً، فأنت تجد غرفة غارقة في ظلام دامس وامرأة ترتعد وترتعش، كما تسمع نقراً على الجدران، ثم لا تلبث المرأة التي تقوم بدور الوسيط أن تنهض وتصلح زينتها وتعود إلى بيتها فتتناول وجبة دسمة كغيرها من الناس.

فقلت: أنت تريد أن تسند أدوار الساحرات الثلاث إلى ثلاث سيدات شمطاوات دميمات يمارسن سحرهن سراً وهن يتمتمن بتعاويذهن حول مرجل ساخن متوسلات للأرواح مع بقائهن سيدات عاديات لا يختلفن عن غيرهن. نعم، هذا يمكن أن يأتي بأثره المطلوب.

فقالت هرميا بلهجة جافة: ولكنك لن تجد مَن توافق على القيام بمثل هذا الدور.

فأيدها دافيد قائلاً: هذا هو بيت القصيد، إنها أقلّ إشارة إلى الجنون ثم يترك الممثل لنفسه العنان، ونفس الشيء إذا حدث الموت فجأة، ولكن ما من أحد من الممثلين يرضى أن يدهمه الموت بهدوء، لا بدّ له أن يصرخ ضارباً صدره بيديه محاولاً انتزاع شعر رأسه وانتزاع التصفيق من الجمهور.

فقلت: لو أن شكسبير رأى كيف يمثلون مسرحيته اليوم لأخذته الدهشة.

وقالت بوبي: أحقاً ما يقال من أن رجلاً يُدعى باكون هو الذي

كتب مسرحيات شكسبير؟

فأجابها دافيد برقّة: هذه نظرية قديمة، ولكن ماذا تعرفين عن باكون؟

فأجابت بزهو: إنه هو الذي اخترع بارود المدفع.

فنظر دافيد إلينا وقال: أعرفتم الآن لماذا أحب هذه الفتاة؟ إنها تعرف أشياء لا يمكن أن نتوقعها حقاً. إن الذي اخترع البارود هو فرنسيس باكون وليس روجر باكون يا عزيزتي. ثم استطرد قائلاً: لقد كان من الشائع في ذلك العهد أن يلجأ المرء إلى قاتل محترف ليطلب منه أن يقتل له من يريد، وهذا أمر بعيد الوقوع اليوم.

فاحتجّت هرميا قائلة: إطلاقاً، لأنه يوجد رجال العصابات، وجمعية كوكوكس كلان، ورجال شيكاغو وغير ذلك.

فقال دافيد: لا، لم أعنِ هذا، وإنما كنت أعني القوم العاديين الذين يتمنّون التخلص من شخص ما، مثل منافس شديد الخطر، أو العمة الثرية التي تتمسك بالحياة ولا تريد أن تموت، والزوج المزعج الذي تريد زوجته أن تتخلص منه. ما أسهل الحياة لو أن في مقدور المرء أن يمسك سماعة الهاتف ويقول: مرحباً، ابعث إليّ بقاتلَين بارعَين.

فضحكنا جميعاً وقالت بوبي: ولكن هذا أمر ممكن الوقوع حقاً.

فسألها دافيد قائلاً: وكيف ذلك يا عزيزتي؟

- حسناً، أعني أن يوجد أناس يفعلون ذلك إذا كان يوجد من يريد، أُناس مثلنا. ولكنني أعتقد أن هذا العمل باهظ التكاليف.

وكانت عيناها متسعتين تنطقان بالسذاجة وشفتاها نصف مطبقتين، فسألها دافيد بفضول قائلاً: ماذا تعنين؟

فبدا الارتباك على بوبي وقالت: آه! يبدو أنني أسأت الفهم. لقد كنت أتحدّث عن «الحصان الأشهب».

- الحصان الأشهب؟ أي حصان أشهب؟

فاحمرّ وجه بوبي وقالت وهي مطرقة: أنا غبية. لقد سمعت بعضهم يتكلم ذات يوم عن شيء، ويبدو أنني أسأت فهم ما قيل.

فقال دافيد برفق: لا عليك يا فتاتي، اشربي قليلاً من عصير البرتقال.

* * *

من الحقائق الثابتة التي لمستها في الحياة أنه ما إن يأتي ذكر شيء ما في الحديث عرَضاً مرّة حتى يتعرض المرء لسماعه للمرّة الثانية خلال الساعات الأربع والعشرين التالية على وجه التقريب، وقد تأكّدت من ذلك في صباح اليوم التالي بالذات، فقد رنّ جرس الهاتف، وعندما رفعت السماعة إلى أذني سمعت صوتاً لاهثاً يقول بشيء من التحدّي: لقد فكرت في الأمر وسأذهب.

فقلت وأنا أحاول اكتساب بعض الوقت: حسناً، ولكن...

فاستطرد الصوت قائلاً: مهما يكُن من أمر فإن الصاعقة لا تقع في نفس المكان مرتين.

- هل أنت متأكدة من أنك تتكلمين مع الرقم المطلوب؟

- طبعاً، ألست أنت مارك إيستربروك؟

- آه، السيدة أوليفر؟

فقالت: ألم تعرف صوتي؟ لم يخطر لي ذلك. أنا أتكلم عن حفلة رودا. سأذهب وسأوقّع على كتبي إذا كنت تريد.

- هذا كرم منك، وستقيمين في البيت معها طبعاً، أليس كذلك؟

فسألتني بانزعاج: هل أنت متأكد من أنها لن تكون حفلة لاستقبالي؟ أنت تعرف ما يقع في مثل هذه الحفلات، فالناس يتدافعون حولي يسألونني ماذا أكتب حالياً في حين أكون واقفة أشرب عصير البرتقال أو الطماطم ولا أمسك بالقلم، ثم يقولون إنهم يحبون كتبي، وهذا شيء يروق لي طبعاً، ولكنني لا أجد الردّ المناسب أبداً. قل لي، هل تعرف إذا كانوا ينوون الذهاب إلى الحصان الوردي؟

- الحصان الوردي؟!

- أعني مقهى «الحصان الأشهب»، فأنا لا أحب هذه المقاهي ولا أرتادها.

- ولكن ماذا تعنين بالحصان الأشهب؟

- إنه مقهى كما قلت لك، أليس كذلك؟ أو لعلّي أعني الفرس الوردي، أو لعله شيء آخر واختلط عليّ الأمر. أنا أتخيل أشياء غريبة هذه الأيام.

فسألتها: وكيف حال الببغاء؟

فقالت بدهشة: الببغاء؟!

- وماذا عن كرة الكريكيت؟

فقالت بوقار: لا ريب أن بك مساً من الجنون أو لعلك تشكو صداعاً أو شيئاً من هذا القبيل. حصان أشهب وببغاء وكرة كريكيت؟!

ووضعت السمّاعة مكانها. وكنت لا أزال أفكر في إشارتها إلى الحصان الأشهب حين رنّ جرس الهاتف للمرة الثانية، وكان المتحدث في تلك المرة هو الأستاذ سونز وايت، وهو محام معروف اتصل بي ليعيد على سمعي أنه طبقاً لوصية إشبينتي هسكس ديبوا فإنه يحقّ لي أن أختار ثلاث لوحات من لوحاتها، ثم قال: وقد استقرّ الرأي على بيع مقتنياتها في لندن، وإذا استطعت أن تأتي إلى ميدان أسمير في أقرب وقت...

فقاطعته قائلاً: أنا قادم الآن.

فقد كان اليوم يبدو غير مناسب للعمل.

* * *

خرجت من البيت رقم ١٩ بميدان أسمير واللوحات الثلاث تحت إبطي، ثم اصطدمت برجل يرتقي الدرجات الأمامية للبيت فتمتمت ببضع كلمات اعتذار كما فعل الرجل ذلك أيضاً. وكانت توجد سيارة أجرة واقفة على بُعد أمتار فهممت بأن استدعيها عندما التفتّ فجأة وهتفت قائلاً: مرحباً، كوريغان.

- آه، مَن؟ مارك إيستربروك؟

كنت أنا وجيم كوريغان صديقين حميمين جداً في أيام الدراسة في أُكسفورد، وقد مضت خمس عشرة سنة لم أرَه فيها، ثم قال: لقد خيّل إليّ أنني أعرفك حقاً. لقد قرأت مقالاتك، وهي ممتعة حقاً.

- كيف حالك؟ هل كرّست وقتك لأبحاثك كما كنت تريد؟

فتنهد كوريغان وقال: لم أستطع، إن الأبحاث تتطلب أموالاً طائلة إذا أردت أن تقوم بها وحدك، كما أنه ليس لدي زميل مليونير، ولا توجد جمعية تتبنى هذه الأبحاث، ولهذا لم أجد مفراً من أن أعمل كطبيب شرعي في شرطة لندن، وهي مهنة ممتعة حقاً، وقد استطعت أن أرى فيها كل أنواع الجريمة. ولكنني لا أريد مضايقتك وإصابة رأسك بالصداع بالحديث عن العمل. ما رأيك في أن تتناول الغداء معي؟

- بكل سرور، ولكنك كنت عازماً على الدخول.

وأومأت برأسي إلى الباب المفتوح خلفه فقال: هذا صحيح، لقد كنت أريد استقصاء بعض المعلومات، ولكنني أستطيع الانتظار.

- لا يوجد بالبيت أحد فيما عدا البواب.

- هذا ما توقعته، ولكنني كنت أريد أن أعرف شيئاً عن السيدة هسكس ديبوا، ديبوا إشبينتي.

- أحقاً؟ هذا عظيم. أين يمكن أن نتناول الغداء؟ أنا أعرف مطعماً غير بعيد، وهو ليس بمطعم فخم ولكنهم يقدّمون فيه طعاماً طيباً.

وبعد لحظات كنا نجلس أمام مائدة ويقوم على خدمتنا شاب يرتدي زي البحّارة الفرنسيين، فقلت أخاطب كوريغان: والآن ماذا تريد أن تعرف عن السيدة هسكس ديبوا؟

فقال: إنها قصة طويلة، ولكن قُل لي أولاً، أي نوع من النساء كانت؟

ففكرت لحظة ثم قلت: كانت سيدة رجعية، وكان زوجها حاكماً على إحدى الجزر البريطانية، وقد كانت واسعة الثراء تحب الرفاهية ووسائل الراحة وتقضي الشتاء خارج البلاد، ولكن بيتها بغيض يزخر بقطع الأثاث والفضيات التي يرجع عهدها إلى عهد الملكة فيكتوريا، ولم يكُن لها أولاد، إلا أنها كانت تقتني كلبين من الكلاب المدلّلة، وكانت عنيدة جداً ومحافظة جداً ومتعنّتة إلى أبعد حدود التعنّت. ماذا تريد أن تعرف أكثر من هذا؟

- لا أدري حقاً. هل كان في حياتها ما يجعلها عرضة للتهديد وابتزاز المال؟

فضحكت بدهشة وصِحت قائلاً: هي؟ هذا غير معقول، ولكن ما الأمر؟

وهكذا عرفت الظروف التي أحاطت بمصرع الأب غورمان، فألقيت الشوكة من يدي وسألته: هل معك قائمة الأسماء؟

- الأصلية ليست معي الآن، ولكن ها هي صورة منها.

فأخذت الورقة التي قدمها إليّ وفحصتها طويلاً ثم قلت: باركنسون! أنا أعرف رجلين بهذا الاسم، أحدهما آرثر بالبحرية والآخر هنري الموظف بإحدى الوزارات. أما أورميرود فيوجد قائد بهذا الاسم في البحرية. وساندفورد هذا اسم مدرّس بالمدرسة التي كنت أتلقى فيها تعليمي وأنا طفل. هارموند سوورث، لا، توكرتون... توكرتون...

وصمتّ لحظة ثم هتفت قائلاً: لعلّها تومازينا توكرتون.

فنظر كوريغان إليّ بفضول ثم قال: هذا جائز، وماذا تفعل هذه؟

– لا شيء في الوقت الحاضر. لقد نشرت الجرائد خبر وفاتها منذ أسبوع.

– إن هذا لا يساعدنا كثيراً.

ثم استأنفت قراءتي قائلاً: شو، أنا أعرف طبيب أسنان بهذا الاسم، كما يوجد جيروم شو، وهو محام. ديلا فونتين، لقد سمعت هذا الاسم مؤخراً ولكنني لا أذكر أين. كوريغان، هل هذا اسمك؟

– أرجو أن لا يكون ذلك لأنه يخامرني إحساس بأن هذه الأسماء يجمع بينها شرّ خطير.

– هذا جائز، ولكن ما الذي يجعلك تعتقد أن وراء هذه الأسماء قصة ابتزاز أموال بالتهديد؟

– هذا رأي المفتّش ليغون، ويبدو أنه أكثر الآراء احتمالاً حتى الآن، وقد يكون وراء هذه القصة مخدّرات أو أشخاص يتعاطون المخدرات أو جواسيس، ولكن الشيء الوحيد المؤكد هو أن لهذه القائمة شأناً كبيراً لأنه وقعت جريمة قتل للحصول عليها.

فسألته بفضول قائلاً: وهل تهتم دائماً بالجانب البوليسي في عملك؟

ولكنه هزّ رأسه وقال: الحق أنني لا أهتم إلا بالطبيعة البشرية، بالدافع الذي يدفع القاتل إلى ارتكاب جريمة القتل، وكذلك المناسبات التي تحيط بها.

– إذن لِمَ كل هذا الاهتمام بقائمة الأسماء هذه؟

فأجاب كوريغان بتؤدة قائلاً: الحق أنني لا أدري. قد يكون

اسمي هو الذي حفزّني إلى ذلك، وقد يكون شخص آخر يحمل اسمي في خطر ربما أستطيع أن أسرع لنجدته.

– نجدته؟ معنى هذا أنك ترى في هذه القائمة أسماء ضحايا لا أسماء مجرمين. أنا متأكد من أن الأمر كذلك.

– أنت على حق، ومن الغريب أنني متأكّد من ذلك. لعله مجرّد شعور، أو لعل ذلك يرجع إلى مصرع الأب غورمان نفسه. أنا لم ألتقِ به ولكنه كان رجلاً ممتازاً يتمتع باحترام جميع أتباع مذهبه وحبهم له، وكان من ذلك النوع الذي يناضل من أجل الحق، وأنا على يقين من أنه كان يعلق على هذه القائمة أهمية كبيرة.

– ألم يهتدِ رجال الشرطة إلى شيء؟

– لقد اهتدوا إلى الكثير، ولكن ما زال أمامهم الأكثر؛ إذ يجب التحرّي عن كل شيء بدقّة، ولا سيّما ماضي تلك المرأة التي استدعت الكاهن.

– ومَن هي؟

– هي أرملة لا يحيط بها أي غموض في الظاهر، وقد بدا لنا أن لزوجها صلة بالسباق، ولكننا لم نلبث أن تحققنا من العكس. وكانت تعمل بإحدى الشركات التي تهتم بعمل الإحصائيات الخاصة باستهلاك المنتجات التموينية التي لا غنى للمرء عنها في حياته، ولا يوجد شيء تؤاخَذ عليه في هذه الناحية، وكذلك الشركة التي كانت تعمل بها، وهي شركة محترمة ولكنها صغيرة. وهم لا يعرفون الشيء الكثير عنها فيما عدا أنها أقبلت من شمال إنكلترا، من لنكشاير، والشيء الوحيد الذي يُتعجّب منه حقاً هو أنها لم تكُن تملك غير القليل من المتاع.

فهززت كتفي وقلت: هذا أمر شائع، وليس فيه ما يدعو إلى الاستغراب، فالناس يعيشون اليوم في عزلة.

- هذا صحيح.

- وأنت الآن تقوم بالتحقيق، أليس كذلك؟

- أنا أبحث وأتحرّى بدافع الفضول لا أكثر، واسم هسكس ديبوا ليس من الأسماء الشائعة، وقد حسبت أنني أستطيع أن أجمع بعض المعلومات الهامة عن تلك السيدة العجوز، ولكن كل ما سمعته منك لا يؤدي بنا إلى أي نتيجة.

- إنها لم تتعاطَ المخدّرات في حياتها، كما أنها لم تحاول الانتحار، ثم إنها ليست جاسوسة بكل تأكيد. إنها مستقيمة في حياتها بحيث لا يخطر لأحد أن يهدّدها بإفشاء أي سرّ، فلماذا يوجد اسمها في هذه القائمة؟ كما أن جواهرها في صندوق بأحد المصارف، وليس لديها ما يغري اللصوص بالسرقة.

- هل لها أقرباء بنفس الاسم؟

- لا، فهي لم تنجب ذرية، وليس لها سوى ابنة خال، ولكن ليس لها أقرباء يحملون نفس اللقب، فقد كان زوجها وحيد أبويه.

وأكّد لي كوريغان أنني كنت له أكبر العون، ثم افترقنا بعد ذلك إذ كان لا بدّ من تشريح إحدى الجثث، أما أنا فقد عدت إلى بيتي وأنا أفكر. وحملني تفكيري على الاتصال بدافيد أردنغلي وسألته قائلاً: دافيد، أنا مارك. ما اسم تلك الفتاة التي كانت برفقتك أمس، أعني بوبي، ما اسمها بالكامل؟

فقال دافيد وهو يقهقه: هل تريد أن تسرق منّي فتاتي يا مارك؟

ولكن لديك فتاتك، وأحرى بك الآن أن تستقرّ وأن تكون لها نِعم الزوج المخلص.

أحرى بي أن أستقرّ وأن أكون لفتاتي نِعم الزوج المخلص؟ يا له من تعبير بغيض أحسست بنفور منه، إلا أنني شعرت بأنه خير وصف لعلاقتي بهرميا، ولكن لماذا أحس بمثل هذا النفور؟ لقد كنت أعتقد دائماً أنني أنا وهرميا سنتزوّج ذات يوم لأنني كنت أحبها حباً عظيماً، ثم إنه كانت تربط بيننا عوامل مشتركة كثيرة.

وشعرت برغبة كبيرة في التثاؤب دون سبب معقول، فقد رأيت المستقبل أمامي أنا وهرميا، حيث نذهب إلى التمثيليات ذات الأهمية والمسرحيات المشهورة ونتناقش في الفن والموسيقى، ولم يكُن يوجد أي شك في أن شيئاً في نفسي جعلني أعتقد أن زواجي بها لن يكون ممتعاً. ثم سألني دافيد قائلاً: هل غلبك النعاس؟

- لا، وإذا أردت الحقيقة فإن صديقتك تروقني.

- لا بأس، فهي من النوع الذي يعجب الناس. إن اسمها باميلا ستيرلينغ، وهي تعمل بائعة في إحدى محالّ الزهور الراقية.

وأعطاني العنوان ثم استطرد قائلاً بلهجة أبوية رقيقة: اخرج معها واستمتع بمرافقتها، وستشعر بمتعة كبيرة لأنها لا تعرف شيئاً البتة ورأسها فارغ وتصدّق كل ما يقال لها، لكن لا يذهب بك الظن فهي فتاة عفيفة شريفة.

ثم وضعت السماعة مكانها.

* * *

اجتزت باب محلّ بيع الزهور بشيء من الانفعال، فردّتني رائحة قوية من الياسمين إلى الخلف، ثم وقفت أمام عدد من

الفتيات يرتدين ثياباً خضراء جميعهن يشبهن بوبي، فوقفت مدهوشاً وقد اختلط عليّ الأمر، ثم اكتشفتها أخيراً، فقد كانت تحاول كتابة عنوان بشيء من الصعوبة وهي تتهجّاه تقريباً، فانتظرت حتى انتهت من ذلك ثم اقتربت منها وقلت لها: لقد التقينا مساء أمس عندما كنت مع دافيد أردنغلي.

فقالت بحرارة وهي تنظر إليّ بشرود: آه، أجل.

- أريد أن أسألك شيئاً.

واستولى عليّ الارتباك فجأة فقلت: لعل من الأفضل أن أشتري بعض الزهور.

فتحرّكت بوبي كالآلة وقالت بغباء: لقد جاءتنا زهور جميلة اليوم.

وكان المحلّ يزخر بالزهور في كل مكان فقلت: كم ثمن تلك الزهور الصفراء التي هناك؟

فأجابت بوبي: إنها ليست غالية، خمسة شلنات فقط للزهرة الواحدة.

فازدردت لعابي وطلبت منها ستاً فقالت: هل تحب أن ألفّها في هذه الأوراق الجميلة.

فنظرت إلى الأوراق التي تتكلم عنها بشيء من الشك؛ فقد كانت باهتة غير طازجة، ثم اخترت بدلاً منها أوراقاً أخرى من أوراق الهليون أجمل وأكثر اخضراراً، وهو اختيار قلّل من شأني في نظر بوبي. ثم عدت أقول وهي منهمكة في تغليف الزهور بأوراق الشجر: أريد أن أسألك شيئاً. لقد ذكرت في الليلة الماضية شيئاً عن الحصان الأشهب.

فدهشت بوبي بشدة بحيث أفلتت الزهور والأوراق منها في حين استطردت أقول: فهل يمكنك أن تذكري لي عنه المزيد؟

التقطت الفتاة الزهور وقالت: ماذا تقول؟

- لقد سألتك عن الحصان الأشهب.

- حصان أشهب؟! ماذا تعني؟

- لقد تكلمت عنه أمس.

- أنا متأكدة من أنني لم أقُل شيئاً كهذا. أنا لم أسمع عن شيء كهذا قطّ.

- لقد حدّثك عنه شخص ما، فمن هو؟

فأخذت بوبي نفَساً عميقاً وتكلمت بسرعة قائلة: أنا لا أفهم كلمة واحدة مما تقول، وليس لنا الحق في التحدث مع العملاء.

ثم ناولتني الباقة قائلة: خمسة وثلاثين شلناً من فضلك.

فأعطيتها جنيهين فأعادت إليّ ستة شلنات بغلظة ثم تحوّلت عنّي إلى عميل آخر وكانت يداها ترتجفان، فخرجت بتؤدة.

وكنت قد ابتعدت مسافة كبيرة عندما أدركت أنها أخطأت في الحساب؛ فقد كانت الزهور بثلاثين شلناً وأوراق الهليون بسبعة شلنات ونصف، ثم إنها أخطأت مرة أخرى وأعطتني شلناً زائداً، فقلت لنفسي: إنها خائفة، خائفة جداً، ولكن لماذا؟

* * *

الفصل الخامس
رواية مارك إيستربروك

قالت السيدة أوليفر: أنا أشعر بارتياح كبير لأن الحفلة قد انتهت دون أن يقع أي شيء.

ومرّت لحظة استرخاء واستجمام لنا جميعاً، فقد انتهت حفلة رودا كما تنتهي كل الحفلات، وكان قد سبقها قلق كبير بسبب الجوّ الذي كان متقلباً في الصباح الباكر إلى أبعد حد، كما سبقها مجادلات كثيرة حول إقامة الحفلة في الهواء الطلق أو تحت سرادق يقام بطول الحظيرة، ومناقشات مختلفة حول إعداد الشاي وتنسيق المقاعد وخلافه، والترتيبات التي أعدّتها رودا، وكلاب رودا الجميلة التي هربت مراراً على الرغم من أننا حبسناها في البيت خوفاً من أن تتصرف تصرّفاً غير لائق، وهو احتمال قد حدث فعلاً، ثم وصول نجمة تمثيل ناشئة مرتدية معطفاً من الفرو الباهت لافتتاح الحفلة، وقد افتتحت الحفلة بطريقة رقيقة ولكنها تكلمت عن حالة اللاجئين مما أثار دهشة الجميع لأن الحفلة أُقيمت لجمع تبرعات لترميم برج الكنيسة. وأخيراً نفاد زجاجات العصير والصعوبات العادية التي صادفتنا بخصوص العُملة الصغيرة والصخب الذي حدث عند تقديم الشاي حين أسرع الجميع إلى

السرادق لتناوله في وقت واحد، وأخيراً وقت المساء ومشاهدة الرقص في الحظيرة الكبيرة ثم الألعاب النارية.

وعندما انتهى كل شيء جلست أنا وابنة عمي رودا وزوجها الكولونيل دسبارد والآنسة مكاليستر وفتاة شقراء الشعر تُدعى جنجر والسيدة أوليفر والقسيس كالب دين كالتروب وزوجته حول المائدة نناقش أحداث اليوم، وكان القسيس كهلاً محبوباً من الجميع وكان يسرّه أن ينطق بالاصطلاحات المناسبة في كل مناسبة.

ونظرت السيدة كالتروب، وهي امرأة بادية الارتباك جميلة العينين، إلى السيدة أوليفر وسألتها قائلة: ماذا كنت تتوقعين أن يحدث في أثناء الحفل؟

- كنت أخشى أن تقع جريمة قتل أو شيء من هذا القبيل.

- وما السبب؟

- إذا أردت الحقيقة فإنه لا يوجد أي سبب، فيما عدا أن جريمة قتل وقعت في الحفلة الأخيرة التي شهدتها.

وتحوّل القسيس هذه المرة من اللغة اللاتينية إلى اللغة اليونانية في حين قال دسبارد: لقد كان الكهل لويجي صاحب كنجز آرمز كريماً جداً؛ فقد أرسل لنا صندوقين من العصير.

فقلت بحدّة: كنجز آرمز؟

فقالت رودا: هو اسم النُزُل في القرية.

فسألتها: ألا يوجد نُزُل آخر؟

ثم التفتّ إلى السيدة أوليفر وقلت أخاطبها: لقد سمعتك تتكلمين عن مقهى الحصان الأشهب.

فلم يحدث ردّ الفعل الذي كنت أتوقعه؛ فقد نظر الجميع إليّ دون اكتراث، ثم قالت رودا بهدوء: إن الحصان الأشهب ليس مقهى، أعني أنه لم يعُد مقهى الآن.

وقال دسبارد: كان يوجد مقهى بهذا الاسم ولكنه تحوّل إلى بيت للسكن، ويرجع اسمه إلى القرن السادس، ولا أدري لماذا لم يغيروا اسمه هو الآخر!

وصاحت جنجر قائلة: ولماذا يغيرونه؟ أنا لا أتصور أن يطلقوا عليه اسم «الطريق السريع» أو «المنظر الجميل» مثلاً. إن اسم «الحصان الأشهب» أجمل، ثم إن بالبيت لافتة جميلة تحمل هذا الاسم، وقد نقلَتها إلى الردهة الداخلية.

فسألتها: نقلَتها؟ مَن تعنين؟

فقالت رودا: إن المقهى مِلك الآن لتيرزا غراي، وأظنك رأيتها اليوم. إنها تلك المرأة الطويلة القامة ذات الشعر الأشيب القصير.

وقال دسبارد: إنها امرأة تتسم بكثير من الغموض، تعمل بالسحر والتنجيم وبكل ما يتعلق بعلم الأرواح، وإذا أردت الحق فإن الحفلات التي تقيمها في بيتها ليست حفلات سوداء بما في هذه الكلمة من معنى، ولكنها أقرب ما تكون إلى الحفلات المعروفة عند أهل الريف بالزار.

وفجأة أطلقت جنجر ضحكة قصيرة رنانة ولكنها قالت بسرعة: أنا آسفة، كنت أعتقد أن الآنسة غراي أشبه بالسيدة مونتسبان على مذبح من القطيفة السوداء.

قلت متسائلاً: ما زلت أريد أن أعرف مَن تعنين، مَن غير الآنسة غراي؟

فقالت رودا: توجد صديقة لها تقيم معها اسمها سيبيل ستامفورديس، وأظن أنها تقوم بدور الوسيط، وأعتقد أنك رأيتها هي الأخرى، فهي تعلّق على صدرها كمية كبيرة من التمائم والتعاويذ وتلبس رداءً فضفاضاً في أغلب الأحيان ولا أدري السبب في ذلك، فهي لم تذهب إلى الهند إطلاقاً!

وتدخلت الآنسة دين كالتروب قائلة: وتوجد بيللا أيضاً، وهي الطاهية التي تطهو لهما الطعام، وهي الأخرى تعمل بالسحر إلى جانب عملها، وقد أقبلت من قرية ليتل داننغ، ويقال إنها كانت تمارس السحر هناك وإنها ورثته عن أمها.

وكانت تتكلم وكأنها تذكر حقيقة واقعة فقلت: يبدو أنك تؤمنين بالسحر يا سيدة دين كالتروب.

- أجل، فليس في السحر غموض أو خفاء، إنه أمر واقعي تتوارثه البنت عن الأم.

فنظرت إليها بشيء من الشك؛ فقد بدا لي أنها تتكلم بلهجة الجد، ثم قالت رودا: إن سيبيل ساعدتنا اليوم في قراءة المستقبل، وكانت في الخيمة الخضراء. والحق أنه لا يوجد من يجاريها في هذا المضمار.

فقالت جنجر: إنها تنبأت لي بأشياء جميلة، مال وفير وشاب أجنبي وسيم قادم من وراء البحار، وزواج وستة أولاد. الحق أنها كانت في غاية الكرم. أما السيدة باركر فقد خرجت متجهمة الأسارير وقالت: "هذا سخف، أنا لا أصدق كلمة واحدة مما ذكرته لي"، فردت الآنسة كريبس عليها قائلة: "أنت تعرفين مثلي تماماً يا ليزي أن الآنسة ستامفورديس ترى أشياء كثيرة لا يستطيع غيرها رؤيتها، وأن الآنسة تيرزا تستطيع أن تتنبأ بالموت مسبقاً وبموعد

وقوعه على وجه التقريب، وهي لا تخطئ في ذلك أبداً"، والحق أنها تخيفني في بعض الأحيان.

فقالت السيدة أوليفر بحدة: كل هذا مثير، كم أشتاق إلى التعرّف بهن!

فقال الكولونيل دسبارد: سنذهب إليهن غداً. إن ذلك المقهى القديم يستحق الزيارة حقاً. لقد كان من ذكائهن أنهن أفلحن في إدخال وسائل الراحة إليه دون أن يفسدن الطابع الذي اشتُهر به.

وقالت رودا: سأتصل غداً بتيرزا هاتفياً.

* * *

خصصنا اليوم التالي للاستجمام، وقالت لي ابنة عمي: سنتناول الغداء اليوم في قصر السيد فينابلز، وهو رجل ظريف ستروقك صحبته يا مارك؛ فقد تنقّل في كل بقاع العالَم ورأى كل شيء وعرف كل شيء. وقد اشترى قصر بريو كورت منذ ثلاث سنوات وأجرى فيه تغييرات وتعديلات كلّفته ثروة طائلة. وقد تعذّب كثيراً لأنه أُصيب بالشلل وأصبح عاجزاً عن السير لا يستطيع الانتقال إلا بمقعد متحرك.

وكان قصر بريو كورت يقع على بُعد بضعة كيلومترات من القرية، وقد استقبلنا مضيفنا في فِناء القصر وهو جالس في مقعده المتحرك وقال بحرارة: إن قدومكم كرم كبير أيها السادة، لا ريب أنكم متعَبون بعد عمل أمس. لقد كانت حفلة ناجحة يا رودا.

وكان السيد فينابلز في الخمسين من عمره، له وجه صغير وأنف كمنقار النسر يتوسط وجهه بعجرفة وغطرسة، وكان يرتدي قميصاً مفتوحاً ساعد على إظهار سنّه الحقيقية. ثم قامت رودا

بالتعارف اللازم، فابتسم فينابلز وقال يخاطب السيدة أوليفر: لقد التقيت بهذه السيدة أمس وهي تمارس نشاطها، وقد أخذت منها ستة من كتبها بعد أن وقّعت عليها باسمها كي أقدّمها هدايا في عيد الميلاد. أنت رائعة يا سيدة أوليفر، فلا تتوقفي عن الكتابة.

ثم التفت إلى جنجر وقال: أما أنت أيتها الآنسة الشابة فقد أوشكت أن تبيعيني كل ما كان معك من أوراق اليانصيب.

ثم التفت إليّ واستطرد قائلاً: لقد أعجبني المقال الذي نشرته لك مجلة ريفيو في عدد الشهر الماضي.

فقالت رودا: لقد شرّفتني بقدومك أمس يا سيد فينابلز، والحق أنني لم أكُن أطمع في قدومك، خصوصاً بعد أن أرسلت إلينا شيكاً بمبلغ كبير.

- أنا أحب هذه الحفلات كثيراً؛ فهي تعطيني فكرة حقيقية عن الحياة الريفية في إنكلترا، ثم إنني قد ربحت دمية جميلة، كما تنبأت لي سيبيل بمستقبل باهر زاهر. لقد كانت ترتدي ثياباً غريبة وتضع على رأسها عمامة كبيرة!

فقال الكولونيل دسبارد: يا لسيبيل الطيبة العجوز! سوف نذهب لتناول الشاي عند تيرزا بعد ظهر اليوم. إن بيتها يثير الاهتمام حقاً.

- الحصان الأشهب؟ هذا صحيح، ومما يؤسف عليه أنه أصبح مسكناً، ولو أنه بقي مقهى كسابق العهد به لكان أروع. لقد كان يحيط به جوّ من الغموض وماضٍ مشبوه. صحيح أنه لم يكُن يصلح للتهريب لأنه بعيد عن البحر ولكن لعله كان ملاذاً للصوص وقطّاع الطرق، ويقال إن الأثرياء الذين كانوا ينزلون به

لقضاء الليل كانوا يختفون بعد ذلك ولا يظهر لهم أثر، ثم انتهى الأمر بهذا المكان الغامضة الحافل بالأسرار إلى أن أصبح ملاذاً مأموناً لثلاث سيدات عوانس.

فصاحت رودا قائلة: آه، أنا لم أنظر إليهن هذه النظرة قطّ، ربما بدت سيبيل ستامفورديس بأحجبتها وتعاويذها مضحكة ولكنها تختلف عن ذلك كل الاختلاف، فهي امرأة مخيفة تبعث القشعريرة إلى النفس، وهي إذا نظرت إليك يخيّل إليك أنها تقرأ أفكارك، وهي لا تتكلم عن مقدرتها في الاستبصار والتنجيم ولكن الجميع يعرفون عنها ذلك.

وقال الكولونيل دسبارد: أما بيللا فهي ليست عانساً عجوزاً، بل أرملة شيّعت زوجين إلى قبرَيهما.

فقال فينابلز ضاحكاً: أرى أنني قد ظلمتها.

فقال الكولونيل دسبارد مرة ثانية: الشائعات تدور عنها في كل الأنحاء وتقول إنها استاءت منهما فألقت سحرها عليهما فأخذهما المرض والهزال ودهمهما الموت.

- طبعاً، لقد نسيت أنها ساحرة القرية.

ثم قال فينابلز وهو يفكر: إن السحر أمره عجيب، ولا يملّ المرء الحديث عنه، ويختلف أمره من بلد لآخر. أذكر أنني عندما كنت في إفريقيا الشرقية...

وأخذ يتكلم في الموضوع بإسهاب وطلاقة، فتكلّم عن رجال الطب في إفريقيا وعن الطوائف الدينية في بورينو، ثم وعد بأن يرينا بعض أقنعة السحرة في إفريقيا الغربية بعد أن نفرغ من تناول الغداء، فقالت رودا وهي تضحك: إن هذا البيت فيه كل شيء.

فهز كتفيه وقال: إذا لم تستطيعي الحصول على كل شيء فيجب على كل شيء أن يسعى إليك.

وبدت في صوته مرارة مفاجئة، ثم ألقى نظرة سريعة إلى ساقيه الكسيحتين واستطرد قائلاً: إن الدنيا حافلة بأشياء كثيرة طالما اهتممت بها لأنني أريد أن أرى كل شيء وأعرف كل شيء. أنا لم أتمتع بالحياة في شبابي، ومع ذلك فإن الحياة الآن حافلة بأسباب السلوى والعزاء.

فسألته السيدة أوليفر فجأة قائلة: ولماذا هنا؟

فاستولى الارتباك على الآخرين وساد جوّ كالذي يسود عند الإشارة إلى المآسي دائماً. وكانت السيدة أوليفر هي الوحيدة التي لم تشعر بأي ارتباك، وقد ألقت سؤالها لا لشيء إلا لتعرف، وكان لفضولها الصريح الفضل في تبديد الارتباك الذي استولى علينا، ثم نظر فينابلز إليها نظرة تساؤل فعادت تقول: أعني لماذا أقمت هنا بالذات بعيداً عن الأماكن المأهولة؟ هل لأن لك أصدقاء هنا؟

فارتسمت على شفتَي فينابلز ابتسامة ساخرة وقال: لا، وإنما أتيت إلى هذا المكان لأنه ليس لي فيه أي صديق.

فتساءلت بيني وبين نفسي قائلاً: هل السيد فينابلز عاجز حقاً إلى حدّ أنه لا يستطيع الانتقال إلى مختلف بقاع العالَم أم إنه دبّر أمره بحيث يبدو كذلك؟ ومن الواضح أنه قرأ أفكاري لأنه نظر إليّ وقال: لقد تحدّثت في مقالك الأخير عن معنى كلمة «العظمة»، وقارنت بين معانيها المختلفة في بلاد الشرق والغرب، ولكن ماذا ترانا نعني هنا في إنكلترا حين نتكلم عن رجل فنقول إنه رجل عظيم؟

فقلت: إنما عنيت بالعظمة العبقرية والذكاء والأخلاق الحميدة طبعاً.

فنظر إليّ وقد برقت عيناه وقال: هل معنى ذلك أنه لا يمكننا أن نصف الرجل الشرّير بأنه رجل عظيم؟ إن الشرّ موجود، وهو أشدّ جبروتاً من الخير في أغلب الأحيان. إنه موجود ويجب أن نعترف بوجوده وأن نبذل كل جهدنا لمقاومته وإلا هوينا إلى الظلمات.

* * *

الفصل السادس

(برواية مارك إيستربروك)

غادرنا قصر بريو كورت بعد أن تجاوزت الساعة الرابعة بقليل، وكان فينابلز قد طاف بنا أنحاء القصر بعد أن فرغنا من تناول ما لذّ وطاب من الطعام والشراب، وقد انتقل بنا من غرفة إلى غرفة وهو يشعر بزهو كبير. والحق أن القصر كان كنزاً لا يقدّر بثمن.

وقلت أخاطب ابنة عمي ونحن في طريق العودة: لا ريب أنه ثري جداً بتلك الأحجار الكريمة وتلك الزخارف الإغريقية فضلاً عن الأثاث والرياش الفاخرة. من حُسن حظك أنك تقيمين بجوار ذلك الرجل السعيد.

فقالت رودا: أليس كذلك؟ إن كل جيراننا قوم ظرفاء، كما أنهم أغنياء، ولكن السيد فينابلز لا يمكن أن يقارَن بهم.

فسألتها السيدة أوليفر قائلة: وكيف أصبح ثرياً؟ أعني هل ورث ثروته هذه؟

فقال دسبارد بحدّة: إنه لا يوجد في أيامنا هذه من يستطيع أن يزهو بأنه ورث ثروة كبيرة لأن الضرائب كفيلة بأن تحرمه من

الجزء الأكبر منها.

وصمت برهة ثم استطرد قائلاً: لقد قيل لي إنه بدأ حياته حمّالاً، ولكنني أرى أن هذا غير معقول. إنه لا يتكلم عن طفولته ولا عن عائلته مطلقاً.

ثم التفت إلى السيدة أوليفر وقال لها إن الناس يقدّمون إليها دائماً ما لا تحتاجه.

* * *

كان الحصان الأشهب بيتاً عتيقاً بُني نصفه بالطوب والنصف الآخر بالخشب بطريقة فنية تثير الإعجاب، وكان يقع في مكان ناءٍ عند القرية وخلفه حديقة ذات أسوار كانت تضفي عليه منظراً ساحراً جميلاً. وما إن وقعت عيناي عليه حتى شعرت بخيبة أمل، فأطلعت أصدقائي على الإحساس الذي انتابني قائلاً: إنه بيت عادي ليس فيه ما يبعث على التشاؤم أو الكآبة.

فقالت جنجر: تمهّل حتى تراه من الداخل.

هبطنا من السيارة واتجهنا إلى الباب، ولم نكَد نبلغه حتى فُتح على مصراعيه ووقفت الآنسة تيرزا غراي على عتبته بقامتها المديدة التي تشبه قامة الرجال، وكانت ترتدي ثوباً من التويد ولها جبين عريض وأنف كبير معوجّ وعينان زرقاوان باهتتان ونظرة حادة ثاقبة. ثم قالت بصوت منخفض: آه، ها أنتم أخيراً. لقد ظننت أنكم ضللتم الطريق.

ولمحتُ خلفها وجهاً يبدّد ظلمات الدهليز المعتم ليتفرّس فينا، وكان وجهاً صغيراً ساذجاً أشبه بوجوه الأطفال الذين نراهم في لوحات الرسّامين، ثم قدّمتنا رودا إلى صاحبة الدار وذكرت لها

أننا تناولنا طعام الغداء مع السيد فينابلز في قصره المعروف باسم بريو كورت، فقالت السيدة غراي: آه، هذا يفسر كل شيء إذن. لا ريب أنكم استمتعتم بالأطباق اللذيذة التي يعدّها طاهيه الإيطالي الممتاز. يا للكنوز التي يزخر بها قصره! إنه قصر ليس له مثيل، إنه تحفة. ولكن تفضلوا بالدخول، ومهما يكُن فنحن نفخر ونزهو بقصرنا أيضاً؛ فهو قصر تاريخي بُني منذ ألف وخمسمئة سنة.

كان الدهليز مظلماً كما قلت من قبل، ذا سقف منخفض، وفي بدايته درَج حلزوني، وبه موقد كبير فوقه لوحة كبيرة داخل إطار. وعندما رأتني الآنسة غراي أنظر إلى تلك اللوحة أسرعت تقول: هذه هي اللافتة القديمة للمقهى، مقهى الحصان الأشهب، ولكن لا يمكن أن تراها جيداً في الضوء الخافت.

فقالت جنجر: أستطيع أن أنظفها لك إذا شئت، ابعثي بها إليّ فسأعيدها إلى حالتها الأولى.

قالت تيرزا غراي: لا أعتقد ذلك. ثم استطردت قائلة كما لو كانت تريد أن تقطع عليها خطّ الرجعة: ربما أتلفتِها.

فردّت جنجر بحنق: لا، لن أتلفها طبعاً، فهذا عملي. ثم استطردت قائلة موجّهة الحديث إليّ: أنا أعمل في متاحف لندن، وأنا أُحسن عملي لأنني أحبّه.

فعادت الآنسة تيرزا غراي تقول: لا بدّ من توافر مهارة كبيرة لإصلاح اللوحات الأثرية القديمة. أنا أشعر بصدمة كبيرة عندما أذهب إلى المعرض الوطني هذه الأيام لأن كل اللوحات تبدو وكأنها وُضعت في محلول مطهّر.

فقالت جنجر باحتجاج: ولكنني لا أحسبك تفضّلين أن ترَيها

وقد ضاع لونها.

ثم نظرت إلى اللافتة مرة أخرى وقالت: أستطيع أن أجعل منها لوحة رائعة. يخيّل إليّ أن الحصان من غير فارس.

فدنوت منها كي أنظر إلى اللوحة فوجدتها لوحة عادية لا يميزها شيء عدا أنها قديمة يرجع عهدها إلى زمن بعيد ويظهر فيها جواد شاحب تكاد تضيع معالمه. ثم صاحت تيرزا قائلة: أتسمعين يا سيبيل؟ إن زوّارنا ينتقدون حصاننا. تباً لجرأتهم!

وفي تلك اللحظة كانت سيبيل ستامفورديس قد أقبلت وانضمّت إلينا، وكانت ترتدي رداءً أخضر اللون لا يضيف شيئاً إلى شخصيتها، وكان صوتها ضعيفاً مضطرباً بعض الشيء فقالت: حصاننا العزيز، العزيز جداً؟ لقد أحببنا هذه اللافتة القديمة بمجرّد أن وقعت أعيننا عليها، وأعتقد أنها هي التي دفعتنا إلى شراء هذا البيت، أليس كذلك يا تيرزا؟ ولكن تفضّلوا، تفضّلوا.

ثم تقدّمتنا إلى غرفة صغيرة مربّعة لم يكُن لدي شك في أن طاولة المقهى كانت قائمة فيها فيما سبق ثم أصبحت غرفة استقبال بعد ذلك، وكانت مفروشة بالديباج والحرير وحافلة بالزهريات الجميلة والتحف الثمينة الغالية. ثم جاءت المرأة العجوز التي رأيناها في الدهليز ومعها أدوات الشاي المصنوعة من الفضة، وكانت ترتدي إزاراً أخضر، وكانت ذات وجه كوجوه الأطفال خالٍ من كل تعبير، ومع ذلك فقد بدت وكأنها نذير شؤم.

وفجأة بدأت أمقت نفسي وأمقت كل تلك الضجة التي حدثت حول مقهى قديم وثلاث سيدات عوانس. قالت تيرزا: شكراً لك يا بيللا.

- هل تريدين شيئاً آخر؟

وكانت تتكلم بصوت أشبه ما يكون بالهمس، فأجابتها تيرزا بقولها: لا، شكراً لك.

ومضت بيللا إلى الباب دون أن تنظر إلى أحد، ولكنها قبل أن تخرج رفعت عينيها وألقت نظرة سريعة إليّ، فكان في نظرتها إليّ شيء أفزعني وإن كان من العسير أن أصِف مغزاه. كان في نظرتها شيء من الخبث وإحساس غريب بأنها تعرف عنّي شيئاً ما، وشعرت بأنها قرأت ما يدور في رأسي بسهولة ودون عناء. ولاحظت تيرزا غراي ما أحدثته نظرة بيللا فيّ من ردّ فعل فقالت: إن بيللا تثير الحيرة حقاً يا سيد بروك. لقد رأيتها تنظر إليك.

فسألتها وأنا أبذل مجهوداً جباراً كي أُخفي ما يعتمل في نفسي قائلاً: هل هي من أهل القرية؟

- نعم، وأعتقد أن كل أهل القرية يقولون إنها ساحرة القرية.

صفّت سيبيل ستامفورديس أحجبتها بعضها بجانب بعض وقالت: هل لك أن تقترب يا سيد...؟

- إيستربروك.

- أنا متأكدة من أنك سمعت أننا جميعاً نمارس السحر، فهلاّ اعترفت بذلك الآن؟ نحن نتمتع بشهرة كبيرة في هذا المضمار.

فأيدتها تيرزا قائلة: وهي شهرة لها ما يبررها، وإن سيبيل امرأة موهوبة حقاً.

فتنهّدت سيبيل بسرور وقالت: إن ممارسة السحر قد استهوتني

منذ طفولتي، وقد لاحظت وأنا طفلة أنني أتمتع بقوى غير طبيعية، فكانت يدي تجري بالكتابة بطريقة طبيعية سهلة مع أنني لم أكُن أعرف القراءة والكتابة، وكان يكفي أن أمسك قلماً فإذا بيدي تجري على الورق بيسر وسهولة. كما كنت حساسة دائماً، وقد أُغمي عليّ ذات يوم عندما كنت أتناول الشاي مع صديقة لي وكانت الغرفة التي نجلس فيها ذات طابع مخيف، وقد أحسست بذلك على الفور، وفيما بعد علمت أنه ارتُكب فيها جريمة قتل منذ خمسة وعشرين عاماً.

ثم هزّت رأسها وأدارت بصرها حولها بسرور ورضا، فقال الكولونيل دسبارد باشمئزاز لم يعرف كيف يداريه: هذا رائع!

وقالت سيبيل بلهجة حزينة: كان هذا البيت مسرحاً لحوادث مفجعة، ولكننا قمنا بالخطوات اللازمة وحررنا الأرواح التي كانت تسكنه.

فقلت: أتعنين أنكنّ قمتنّ بنوع من التنظيف الروحي؟

فنظرت سيبيل إليّ بشك، ولكن رودا تدخّلت قائلة: أنت ترتدين رداءً جميلاً رقيقاً يا سيبيل.

فاحمرّ وجه سيبيل وقالت بسرور: لقد أتيت به من الهند، وهي بلاد عجيبة حقاً. لقد درست فيها اليوغا، وإن كانت لم تعجبني لأنها تدعو إلى السأم وقريبة جداً من البدائية، وهي ليست كهاييتي، ففي تلك الجزيرة ينبع السحر من المنابع الحقيقية للروحانيات. ثم نهضت وجاءت بشيء كان على حافة النافذة وقالت: هذا هو غطاء رأسي. إنه قَرعة مجففة مطعمة بفصوص من اللؤلؤ وخرزات الثعابين وقد أتيت بها من هاييتي.

وألقينا إلى القرعة نظرة مهذبة بعيدة عن الحماسة، ثم هزتها سيبيل في حين قال دسبارد: هذا عظيم!

وفي تلك اللحظة شرد ذهني وأخذت أفكر في كل ما قرأت عن تحضير الأرواح وقوى الشرّ، ثم التفتّ إلى تيرزا غراي فرأيتها تنظر إليّ باهتمام وخاطبتني قائلة: أظنك لا تصدق كلمة واحدة من كل هذا، ولكنك مخطئ إذا كان الأمر كذلك. بدايةً نحن لا نستطيع تفسير هذه الأشياء، أعني الخرافات أو الموت؛ فهناك حقائق وقوى جوهرية، وهي حقائق وقوى كانت موجودة دائماً وستكون موجودة دائماً.

فقلت: أظن أنني لن أجادلك في هذه النقطة.

- أنت رجل حكيم. تعالَ معي كي ترى مكتبتي.

ثم استطردت قائلة ونحن نأخذ طريقنا إلى الحديقة: لقد أقمتها في الحظيرة القديمة.

وكانت الحظائر والمنافع قد ضُمّ بعضها إلى بعض فتكوّنت غرفة كبيرة واسعة امتلأت جدرانها بالرفوف التي صُفّت فوقها مختلف الكتب والمجلدات. ولم أكَد ألقي نظرة على تلك الكتب حتى أدركت قيمتها وقلت: إن لديك كتباً قيمة جداً ونادرة الوجود يا آنسة غراي، فهذه النسخة الأصلية من كتاب «أصول السحر» لا تُقدَّر بثمن، وهذا الكتاب الذي وضعه غريغوار غير موجود حالياً.

وأخذتُ أقلب الكتب الواحد بعد الآخر باهتمام كبير، وأخذت تيرزا غراي تراقبني بارتياح ثم قالت أخيراً: يسرّني أن ألتقي برجل يدرك قيمة كتبي. إن أغلب الناس يتثاءبون سأماً

وضجراً عندما أريهم إياها.

- لا ريب أنك تعرفين الكثير عن السحر وتحضير الأرواح ما دامت لديك هذه المجموعة من الكتب، ولكن كيف اتجه اهتمامك إلى هذه الناحية؟

- من الصعب أن أذكر ذلك. لقد حدث منذ وقت طويل حادث غريب استهواني، كما أن السحر يستهوي الناس عادة، وهم يصدّقون كل ما يسمعون عنه بكل سذاجة.

فضحكت وقلت: يسرّني أن أسمع أنك لا تصدقين كل ما تقرئين.

- لا يجب أن تقارنني بسيبيل المسكينة. آه، أنا أعرف ما يدور في رأسك. صحيح أنها امرأة غبية ولكنها وسيطة موهوبة، وهي لا تقوم بعملها هذا من أجل المال، أما أنا وبيللا...

- بيللا؟

- نعم، فإن لها مواهبها هي الأخرى. إن لكل منا خصائصه الخاصة، ولا غنى لكل منا عن الأخرى.

وصمتت فقلت وأنا أبتسم: شركة لمزاولة أعمال السحر!

- سَمِّها ما شئت.

- ولكن هل تؤمنين بكل ذلك؟

فأجابت قائلة: أنا لا أؤمن فحسب، بل أعلم علم اليقين.

وكانت تتكلم بلهجة الزهو والانتصار فنظرت إليها وسألتها قائلاً: ولكن كيف؟ وبأي طريقة؟ ولأي سبب؟

فأشارت بيدها إلى الكتب المرصوصة وأجابت قائلة: كل هذا. إن أغلبها سخافات، ولكن إذا نزعت منها قشور الخرافة والاعتقادات الباطلة فسوف تجد أن الباقي حقيقي لا زيف فيه. إن القشور لم توضع إلا للزينة والتأثير على الناس.

فسألتها قائلاً: وماذا عن الموت؟

فضحكت ضحكة قصيرة غريبة بعثت القشعريرة في أوصالي ثم قالت: الموت؟ إذن الموت يهمّك.

- ومن منا لا يهمّه الموت؟

فقالت وهي تنظر إليّ بحدّة: إن الناس يهتمّون بالموت حقاً، ومع ذلك فقد كان الأمر بسيطاً في العصور الماضية. لنأخذ آل بورجيا وسمومهم المشهورة مثلاً. هل تعرف ماذا كانوا يستخدمون حقاً؟ الزرنيخ الأبيض العادي، نفس الزرنيخ الذي تستخدمه الآن أي امرأة لكي تتخلّص من غريمتها، ولكننا تقدّمنا في هذه الناحية تقدماً كبيراً، ثم جاء العلم فوسّع مداركنا وعقولنا.

فسألتها بشيء من الشك قائلاً: باختراع أنواع من السموم لا تترك أثراً؟

- سموم؟ هذه عادة قديمة، لعب أطفال. توجد الآن آفاق جديدة.

- مثل ماذا؟

- مثل العقل، إذا عرفت من أي شيء يتكون العقل وماذا يمكن أن يفعل وماذا يمكن أن نفعل به. إن المبدأ معروف، والرجال الذين يزاولون الطب في البلاد البدائية يعرفون ذلك منذ أقدم العصور. لا حاجة بك إلى أن تقتل غريمك، وكل ما عليك

أن تفعله هو أن تأمره بأن يموت.

- بطريقة الإيحاء؟ ولكنها لن تثمر إلا إذا آمنت الضحية بها.

- أتعني أن هذه الطريقة تفشل مع الأوروبيين؟ أحياناً، ولكن هذا ليس بيت القصيد. لقد تقدّمنا إلى أبعد من هذا، وتفوّقنا على السحرة الذين يمارسون الطب، وقد خطط لنا علماء النفس الطريق الذي يجب أن نسير فيه. إن رغبة الموت كامنة في أعماق كل منا، وما علينا إلا أن نستغلّها.

فقلت باهتمام: إن الفكرة من الأهمية بمكان، ولكن كيف السبيل إلى إقناع الضحية بالإقدام على الانتحار؟

- أنت ما زلت بعيداً عن الموضوع. هل سمعت عن الجراح التي لا تندمل؟

- طبعاً.

- يوجد أناس يكرهون الذهاب إلى العمل على غير وعي منهم ويتملّكهم انحراف حقيقي غير مصطنع، وهو مرض حقيقي بأعراضه المعروفة وآلامه، وقد ظل سراً بالنسبة إلى الأطباء مدة طويلة.

فقلت ببطء: بدأت أفهم فكرتك.

- كي تحطم ضحيتك لا بدّ للقوى الخفية أن تؤثر على عقلها الباطن. إن رغبة الموت التي تكمن في أعماق كل منا يجب أن تُستثار وأن تصعد.

وازداد انفعالها وهي تسترسل قائلة: هل تفهم ما أعني؟ مرض حقيقي يقع فيتسبب في إحداث الموت نفسه، وذلك بأن تتمنى أن

يتملّكك المرض وأن تموت فلا تلبث أن تمرض وتموت.

ثم رفعت رأسها بزهو وانتصار فسَرَت في جسدي القشعريرة، وكان كل ذلك سخفاً دون شك، ولم يكُن لدي أي شك في أن هذه المرأة مخبولة، ولكن تيرزا غراي ضحكت فجأة وقالت: أنت لا تصدق ما أقول، أليس كذلك؟

- إنها نظرية تتمشى مع العصر الحديث حقاً يا آنسة غراي، ولكن كيف السبيل إلى تحريك رغبة الموت الكامنة في أعماق كل منا؟

- هذا هو سرّي المطلق. نعم، الطريقة والوسائل. توجد اتصالات دون تماس، وما عليك إلا أن تفكر في اللاسلكي والتلفزيون. إن التجارِب فيما يدور في رأس الإنسان من أفكار لم تتقدم بعد كما يرجو الناس، والسبب في ذلك هو أننا لم نصل إلى المبادئ الأولية بعد، ويمكنك أن تصل إلى ذلك عرضاً واتفاقاً، ولكنك إذا عرفت هذه المبادئ فإنك تستطيع أن تفعل ما تريده كل مرة.

- وهل عرفتِها أنت؟

فلم تُجِب على الفور ولكنها لم تلبث أن قالت وهي تسير نحو الباب: لا أستطيع أن أكشف لك عن كل أسراري يا سيد إيستربروك.

فتبعتها إلى الحديقة وأنا أسألها قائلاً: لماذا رويت لي كل هذا؟

- لأنك فهمت كتبي، والمرء يحس دائماً بـ... حسناً، يميل إلى تبادل الحديث مع غيره، ثم إنني...

- إنك ماذا؟

- يخامرني إحساس بأنك قد تحتاج إلينا، وبيللا تشاركني هذا الإحساس.

- أحتاج إليكن؟!

- إن بيللا تعتقد أنك جئت عامداً، وهي قلّما تخطئ.

- ولماذا أحتاج إليكن كما تقولين؟

فأجابت تيرزا غراي برقّة: أما هذا فلا أدري عنه شيئاً بعد.

* * *

الفصل السابع

(برواية مارك إيستربروك)

قالت رودا وهي واقفة بعتبة الباب المفتوح في حين وقف الآخرون خلفها: آه! ها أنتما إذن. لقد تساءلنا أين ذهبتما.

وردّدت البصر حولها ثم قالت: هل تقُمن بجلساتكن هنا؟

فأجابت تيرزا وهي تضحك بانفعال: أرى أنكم على علم بكل شيء. إن الناس في القرى يعرفون عنك أكثر مما تعرف أنت عن نفسك! نحن نتمتع بسمعة طيبة وكئيبة في نفس الوقت.

ثم التفتت إلى السيدة أوليفر وخاطبتها قائلة: يجب أن تعالجي جريمة تدور أحداثها حول السحر الأسود في روايتك الجديدة، وفي مقدوري أن أقدّم لك كل العناصر التي قد تحتاجين إليها إذا شئت.

فبدا الارتباك والضيق على السيدة أوليفر وقالت تعتذر: أنا أعالج الجرائم البسيطة البعيدة عن التعقيد.

وألقى دسبارد نظرة إلى ساعته ثم قال: رودا، أظن أننا...

- أجل، يجب أن ننصرف. لقد تأخّر بنا الوقت أكثر مما كنت أعتقد.

وتبادلنا كلمات الشكر والوداع، ثم انصرفنا من الباب الخلفي للحديقة. وقال الكولونيل دسبارد وهو ينظر إلى الحظيرة المسوّرة: إنك تربّين عدداً كبيراً من الدجاج.

وقالت جنجر: أنا أكره الدجاج لأن أصواته تثير الأعصاب.

فتدخّلت بيللا قائلة: إنها ذات فائدة كبيرة لنا.

وقالت تيرزا بشيء من الاستخفاف: إنها مملكة بيللا.

وقد تمتمت السيدة أوليفر عندما كانت السيارة تبتعد بنا قائلة: أنا لا أحب تلك المرأة؛ فهي تفخر بمعلوماتها.

فقال دسبارد متسامحاً: لا يجب أن تأخذي كلام تيرزا بمأخذ الجد لأنها تريد أن تُظهِر مواهبها وأن ترى تأثير ذلك على مستمعيها.

- أنا لا أعني تيرزا، فهي امرأة معدومة الضمير لا يهمّها إلا الاستئثار باهتمام الناس وليست خطيرة كالمرأة الأخرى.

- بيللا؟ أنا أوافقك على أنها امرأة غامضة غريبة الأطوار.

- لست أعنيها هي الأخرى، وإنما عنيت سيبيل؛ فهي تبدو ساذجة سخيفة بهذا الزيّ الغريب الذي ترتديه وتلك القصص البشعة التي روتها لنا عن الفودو والسحر الأسود وتناسخ الأرواح. بالمناسبة، لماذا لا تتجسد الأرواح في شكل امرأة عادية وتتجسد دائماً في شكل إما أميرة مصرية أو بابلية؟ أنا أشعر أن تلك المرأة تستطيع أن تتسبب في وقوع أشياء غريبة رغم سذاجتها. آه، أنا لا أُحسن التعبير عما أريد أن أقول. إنها تبدو ساذجة أكثر من اللازم.

وصمتت برهة ثم استطردت قائلة بانفعال: أخشى أن لا يفهمني أحد.

فقالت جنجر: أنا أفهمك، ولا يدهشني أن تكوني على حق.

وصاحت رودا قائلة: يجب أن نحضر إحدى جلساتها، لا ريب أن هذا شيء مثير.

فقال دسبارد بعزم وإصرار: لن نفعل شيئاً كهذا، لا أريد أن أراك تشتركين في شيء من هذا النوع.

وأخذا يتجادلان ضاحكَين، ثم حوّلت اهتمامي عنهما عندما سمعت السيدة أوليفر تتحدث عن مواعيد القطارات في الصباح التالي فقلت: تستطيعين العودة معي في سيارتي.

ولكن اقتراحي لم يصادف هوى من نفسها لأنها أسرعت تقول: أنا أفضّل أن أستقل القطار.

- ولكن هذه ليست أول مرة تركبين فيها معي، إنني سائق ماهر.

- لم أقصد ذلك يا مارك، ولكن يجب أن أحضر جنازة في وقت مبكر من صباح غدٍ، ولا بدّ لي من السفر في الفجر لهذا السبب. ثم تنهّدت قائلة: أنا أمقت الجنائز.

- هل من الضروري أن تحضري؟

- نعم، فإن ماري ديلا فونتين كانت صديقة حميمة، وأظن أنها كانت تريد منّي أن أحضر تشييع جنازتها.

فصِحت قائلاً على الفور: ديلا فونتين؟ لقد تذكّرت الآن.

فنظر الآخرون إليّ بدهشة فقلت مبرّراً: أنا آسف. لقد كنت أتساءل أين سمعت اسم ديلا فونتين قبل ذلك. أظنك قلت لي إنك ذهبت لزيارتها في المستشفى.

- حقاً؟ هذا جائز.

- وما سبب موتها؟

- التهاب الأعصاب.

فرمتني جنجر بنظرة تنطق بالدهشة والاهتمام. وعندما هبطنا من السيارة قلت بإيجاز: أرجو المعذرة، فأنا بحاجة إلى أن أتمشى قليلاً لأن الوجبة الدسمة والشاي يثقلان عليّ.

إن بين الأسماء الموجودة في قائمة كوريغان اسم هسكس ديبوا واسم توكرتون اسم ديلا فونتين أيضاً، وقد بدا لي اسماً مألوفاً في البداية وذلك لأن السيدة أوليفر ذكرت لي أن صديقة لها بهذا الاسم مريضة، ثم ها هي قد ماتت متأثرة بمرضها. وقد أنكرت بوبي كل الإنكار معرفتها بالحصان الأشهب، كما تملّكها خوف شديد، ثم إنني التقيت اليوم بتيرزا غراي، ولكن كان واضحاً أن الحصان الأشهب ومَن فيه لا تربطهم بقائمة كوريغان أية صلة، فلماذا جمعت بينهم في ذهني؟ ولماذا تصوّرت أنه توجد صلة ما تربط بينهم؟

لا شك في أن السيدة ديلا فونتين كانت تقيم في لندن، وكانت تومازينا توكرتون تقيم في لندن هي الأخرى، في حيّ صري بالذات، ولم تكُن توجد صلة بينهما وبين هذه القرية الصغيرة، اللهم إلا...

وفجأة وجدت نفسي أمام نُزل كنجز آرمز. إذن فنُزل كنجز

آرمز موجود حقاً! دفعت الباب ودخلت، وكان المشرب مغلقاً، ورأيت عند أسفل الدرَج لافتة كُتب عليها «المكتب»، وكان عبارة عن باب زجاجي مغلق معلّق عليه بطاقة تحمل عبارة «اضغط الجرس». وكان كل شيء يبدو مقفراً، وفوق أحد الرفوف رأيت سجلاً قديماً ففتحته وأخذت أقلب صفحاته، فتبيّنتُ منه أن روّاد النُزل قليلون وأنهم لا يقيمون فيها أكثر من ليلة واحدة.

وغادرت النُزل دون أن ألتقي بأحد، ثم سألت نفسي: هل نزل ساندفورد وباركنسون بنُزل كنجز آرمز مصادفة في السنة الماضية؟ لقد رأيت هذين الاسمين في قائمة كوريغان، وهما من الأسماء الشائعة، ولكنني رأيت اسماً ثالثاً هو مارتن ديغبي، وإذا كان هو الرجل الذي أعرفه فإنه هو ابن خال المرأة التي كنت أعرفها باسم العمة مين، وأعني بها السيدة هسكس ديبوا.

وأخذت أسير في طريقي على غير هدى، ثم شعرت بحاجة ملحّة في التحدث مع أحد، مع جيم كوريغان أو دافيد أردنغلي أو هرميا التي أعرف عنها الحكمة والهدوء؛ فقد كنت وحدي مع أفكاري المضطربة ولم أكُن أريد أن أبقى وحيداً، كنت أريد أن أجد شخصاً أجادله ويجادلني في الأفكار التي بدأت تثقل عليّ.

* * *

قالت السيدة دين كالتروب وقد ظهرت بالباب على الفور كما لو كانت ساحرة: إن الجرس لا يدق. لقد أصلحناه مرتين ولكنه لم يلبث أن فسد مرّة ثانية، ولهذا تجدني بجوار الباب دائماً. أتريدني في شيء؟

– نعم، إنه أمر شديد الأهمية، بالنسبة إليّ على الأقل.

- هذا ما توقعته.

ونظرت إليّ بتأمّل ثم استطردت قائلة: أجل، يبدو أن الأمر بالغ السوء. هل تريد أن ترى الكاهن؟

- كان قد خطر لي أن أفضي إليه بمشكلاتي في بادئ الأمر، ولكنني لم أعُد أدري ما أفعل.

فأسرعت السيدة دين كالتروب لنجدتي قائلة: إن زوجي رجل طيّب، وهذا يسهّل الأمور في بعض الأحيان لأن الرجال الطيبين لا يفهمون الشرّ، وأرى أنه من الأفضل أن تلتقي به.

فلم أملك نفسي من الابتسام ثم قلت: هل أفهم من ذلك أنك متخصّصة في نواحي الشرّ؟

- نعم، هو ذلك. إن زوجي يستطيع أن يحلّ المشكلات، أما أنا فلا، ولكنني أستطيع أن أنسّقها وأقدّمها إليه، وإذا ما فهمها أمكنه أن يمنع حدوثها، أو على الأقل أن يحول بينها وبين أن يستفحل أمرها فلا تؤذي أناساً آخرين. أما المخطئون أنفسهم فلا نستطيع لهم شيئاً ونتركهم لرحمة الله.

- حسناً، أريد أن أمنع الأذى عن بعض الناس.

فألقت إليّ نظرة سريعة وقالت: هل الأمر كذلك؟ إذن اتبعني.

كانت غرفة الاستقبال ببيت الكاهن فسيحة لا تحتوي إلا على القليل من الأثاث، تظللها شجرة ضخمة لا يبدو أن أحداً قد خطر له أن يقطعها، ولكنها لم تكُن كريهة المنظر وإنما كانت تعطي ظلاً من الراحة والهدوء. وقد لاحظت أن المقاعد البالية تحمل أثر الناس الذين جلسوا فوقها أعواماً طويلة، كما رأيت ساعة كبيرة

فوق الموقد تدق بانتظام، وكنت تشعر وأنت في تلك الغرفة بأن أمامك متسعاً من الوقت كي تقول كل ما تريد قوله وتستريح من هموم الخارج.

وبدأت أقول: لقد تناولنا الشاي اليوم عند تيرزا غراي.

لم يكُن من العسير توضيح الأمور وتفسيرها للسيدة كالتروب؛ فقد انحنت إلى الأمام باهتمام قائلة: أنا أفهم. وقد أزعجك أمر أولئك الثلاث وكل ذلك الزهو. لقد أدهشني ذلك لأن التجارِب علّمتني أن الأشرار لا يُطلِعون الغير على نقائصهم ورذائلهم وأنهم لا يذكرونها إلا إذا كانت تافهة ويهدفون من وراء ذلك إلى شيء ما. وساحرات القرية العوانس يهمّهن إرهاب الناس، وقد تكون بيللا ساحرة عادية من ذلك النوع الذي يخيف الناس لا أكثر، أما سيبيل فهي من أغبى النساء اللاتي أعرفهن ولكنها وسيطة موهوبة، وأما تيرزا غراي فأنا لا أدري ماذا قالت لك. لا ريب أنها ذكرت لك شيئاً أزعجك كثيراً، أليس كذلك؟

- إن لك تجارِب كثيرة يا سيدة كالتروب، فهل تصدّقين أن شخصاً ما يستطيع أن يدمّر شخصاً آخر وبينهما مسافة كبيرة دون أن وجود اتصال أو تماس بينهما، أو دون أن يرى أحدهما الآخر؟

فاتسعت عينا السيدة كالتروب باهتمام وقالت: عندما تقول «يدمّر» فأنت تقصد «يقتل»، أليس كذلك؟

- بلى، أقصد ذلك.

فأجابت السيدة دين كالتروب بثبات قائلة: وأنا أقول لك إن هذا سخف.

فقلت بارتياح: أجل.

فعادت السيدة كالتروب تقول: ولكن قد أكون مخطئة. لقد تكلم أبي عن سفن الفضاء وقال عنها إنها سخف، ولا ريب أن جدّي تكلّم عن السكك الحديدية وقال إنها سخف كذلك، وقد كان كل منهما على حق؛ فقد كانت هذه الأشياء تبدو مستحيلة التنفيذ في عهد كل منهما، ولكن لم يعُد يوجد شيء مستحيل اليوم. ماذا تفعل تيرزا؟ هل تستخدم أشعة قاتلة أم تستخدم السحر والشعوذة هي وصديقتاها؟

فابتسمت وقلت: أنت امرأة رائعة. لا ريب أن لتلك المرأة قدرة عجيبة، ولا ريب أنها استطاعت أن تؤثر عليّ.

- لا أعتقد ذلك؛ فأنت لست من النوع الذي يسهل التأثير عليه. لا ريب أنه يوجد شيء آخر، شيء حدث قبل أن تأتي لزيارتي.

- أنت على حق.

ثم رويت لها بإيجاز، وبقدر ما استطعت، ما أعرفه عن مصرع الأب غورمان والإشارة العابرة الخاصة بالحصان الأشهب، ثم أخرجت من جيبي قائمة الأسماء التي نقلتها من قائمة كوريغان، فنظرت السيدة كالتروب إليها وهي عابسة الأسارير وقالت: وما الصلة التي تجمع بين كل هؤلاء الناس؟

- الحق أننا لا ندري. قد يكون ابتزاز أموال بالتهديد أو تجارة المخدّرات.

فقالت: هذا سخف، ليس هذا بالأمر الذي يزعجك، ولكن الذي يزعجك أنهم كلّهم قد طواهم الموت.

فتنهّدت بارتياح ثم قلت: أجل، هذا هو ما يزعجني حقاً،

ويزعجني أكثر أن ثلاثة منهم ماتوا في فراشهم ميتة طبيعية، وهذا ما تؤكّده لي تيرزا غراي.

- هل تعني أنها قالت لك إنها هي التي تسبّبت في موتهم؟

- لا، إنها كانت تتكلّم بصفة عامة، وكانت تفسّر لي ما أعتقد أنه احتمال علمي.

فقالت السيدة كالتروب وهي تفكر: إن هذا الأمر يبدو سخيفاً لأول وهلة.

- أعلم ذلك، ولولا تلك الإشارة العابرة إلى الحصان الأشهب لما أوليت الأمر أي اهتمام.

فعادت السيدة كالتروب تقول بنفس اللهجة السابقة: أجل، الحصان الأشهب. إن الأمر يدعو إلى العجب حقاً.

ولزمت الصمت لحظة ثم رفعت رأسها وقالت: هذا أمر سيئ، بل إنه شديد السوء، وأياً كان مَن وراء الأمر فلا بدّ من إيقافه.

- أجل، ولكن كيف؟

- عليك أن تكتشف ذلك بسرعة ولا تضيّع الوقت.

ثم نهضت واقفة بنشاط وقالت: يجب أن نفعل شيئاً. أليس لك صديق يمكن أن يساعدك؟

ففكرت وقلت في نفسي: هل أستعين بكوريغان؟ ولكنه رجل مشغول بعمله وليس لديه أي فراغ، ولا بدّ أنه يبذل مجهوداً جباراً للتفرّغ لعمله. هل أستعين بدافيد أردنغلي؟ إنه لا يصدّق كلمة واحدة من كل هذه القصة. هل أستعين بهرميا؟ إنها ذات عقل راجح ومنطق سليم، ثم إنها ستقف بجانبي بقوة إذا استطعت إقناعها بأن

تعاونني، ومهما يكُن من أمر فأنا وهي...

ولم أكمل الجملة في ذهني. نعم، إن هرميا هي الشخص الذي أحتاج إليه، ثم قالت السيدة كالتروب: هل فكّرت في أحد؟ حسناً.

كانت السيدة كالتروب امرأة نشيطة لا تحبّ إضاعة وقتها، ثم استطردت قائلة: لن أدَع هؤلاء الساحرات الثلاث يغبِن عن عيني، ولكنني أشعر بأن الجواب الذي تبحث عنه ليس معهن حقاً. ربما وقعت تيرزا غراي على شيء أو سمعت شيئاً فأخذت تستخدمه كي تضفي على نفسها أهمية خاصة، ولكي يعتقد الناس أن لها قوى سحرية حقاً.

* * *

الفصل الثامن

رفع المفتش ليغون رأسه عندما سمع صفيراً في الردهة الخارجية، ولم تمرّ لحظات حتى دخل الدكتور كوريغان وبادره بقوله: أخشى أن لا أُعجب أحداً من رجالك، ولكن سائق السيارة الجاجار لم يكُن مخموراً، وأعتقد أن المخبر أليِس كان مخطئاً في ظنه هذا.

ولكن ليغون لم يكُن يهمه المخبر أليِس في شيء في ذلك الوقت بالذات لأنه قال: تعالَ وألقِ نظرة على هذا.

وناوله رسالة مكتوبة بخط واضح رقيق مرسلة من فيلاّ إفرست على مقربة من بورنموث قرأ فيها ما يلي:

عزيزي المفتش ليغون،

لعلك تذكر أنك طلبت منّي أن أتصل بك إذا رأيت الرجل الذي تبع الأب غورمان في الليلة التي لقي فيها مصرعه، وقد أوليت هذا الأمر كل اهتمامي وظللت أراقب المكان دون جدوى، ولكنني حضرت أمس حفلة خيرية في إحدى القرى على مسافة عشرين كيلومتراً من بيتي، وقد دفعني إلى حضور تلك الحفلة أنه قيل إن السيدة أوليفر مؤلفة الروايات البوليسية

المعروفة ستوقّع على كتبها لمن يريد، ولما كنت من المولعين بقراءة الروايات البوليسية فقد سارعت إلى رؤية تلك السيدة.

ولا تسَل عن مدى دهشتي حين رأيت الرجل الذي وصفته لك هناك وقلت لك إنني رأيته يمرّ أمام صيدليتي في الليلة التي قُتل فيها الأب غورمان، ولكن لا ريب أنه أُصيب في حادث بعد ذلك لأنني رأيته يتنقل في مقعد متحرّك. وقد تحرّيت عنه سرّاً فعرفت أنه يقيم في قصر بربو كورت تحت اسم السيد فينابلز وأنه واسع الثراء. أرجو أن تجد في هذه التفصيلات ما يفيد، ولك تحياتي الخالصة.

زاكاريوس أوسبورن

ثم قال ليغون: ما رأيك في هذا؟

فأجاب كوريغان: هذا شيء غير معقول!

- وهذا هو رأيي أيضاً، ولكن مَن يدري؟

- إن هذا الـ... أوسبورن ما كان ليستطيع أن يرى وجه رجل في ليلة انتشر فيها الضباب كتلك الليلة، وأظن أن الأمر لا يعدو مجرّد شبه عرَضي، وأنت تعرف أنه إذا اختفى أحد أخذ الناس يقسِمون أنهم رأوه هنا أو هناك، ثم يتضح في تسع مرات من عشر أن الشخص الذي رأوه لا تنطبق أوصافه على الأوصاف المذكورة عن المختفي.

- على كل لن يضرنا أن نتحرى عن السيد فينابلز هذا.

* * *

الفصل التاسع

قالت هرميا باستخفاف: توجد أشياء غريبة تقع في الريف.

وكنا قد فرغنا من تناول الطعام وجيء لنا بالقهوة الساخنة، ولم أتوقع أن تنطق بما نطقت به، وكنت قد سردت عليها قصتي وأنصتت إليّ باهتمام وانتباه، ولكنني لم أتوقع منها مثل هذا الردّ، ولا سيّما أنها تكلّمت باستخفاف وعدم اكتراث، ثم استطردت قائلة: إن الذين يقولون إن الريف هادئ وإن المدينة تعجّ بالمثيرات لا يعرفون عن أي شيء يتكلّمون. آخر سلالة الساحرات يلجأن إلى الريف ويُقِمن هناك تلك الجلسات الشيطانية. يمكننا أن نكتب سلسلة طويلة من المقالات في هذا الموضوع المثير، فلماذا لا تحاول أنت؟

- أعتقد أنك لم تفهمي الموقف تماماً يا هرميا.

- بل فهمته يا مارك، وهو أمر مثير حقاً. إنها صفحة من التاريخ تزخر بآثار وعادات العصور الوسطى البائدة.

فقلت ساخطاً: إن الناحية التاريخية لا تهمّني، وإنما تهمّني الوقائع في حدّ ذاتها، تهمّني قائمة الأسماء المكتوبة على قصاصة الورق. أنا أعرف ما حدث لبعض هؤلاء الناس ولكنني لا أعرف ما حدث أو ما سوف يحدث للباقين منهم.

- ألست مندفعاً وراء الخيال يا مارك؟

فقلت متشبثاً برأيي: نعم، أنا لست كذلك. أظن أن الخطر حقيقي، ولست وحدي في هذا الظن؛ فإن زوجة القسيس تشاركني ذلك.

فقالت هرميا متهكّمة: آه، زوجة القسيس!

- لا تتكلّمي عنها بهذه اللهجة؛ فهي امرأة فاضلة. إن كل هذه القصة حقيقية يا هرميا.

ولكنها هزّت كتفيها وقالت: ربما.

- ألا تصدّقين ما أقول؟

- أظن أن الخيال قد شطّ بك قليلاً يا مارك، وأن فتياتك العوانس قد أثّرن عليك تأثيراً سيئاً بحيث صدّقت أقوالهن.

- ألا تعتقدين أنهن على شيء من الخطر؟

- وكيف يتسنى لهن ذلك يا مارك؟

فلزمت الصمت لحظة، ثم انتقل ذهني من النور إلى الظلام ومن الظلام إلى النور، ظلام الحصان الأشهب الذي تمثله هرميا، ثم عُدت أقول بإصرار: أنا أريد أن أتحرى عن هذا الأمر يا هرميا وأن أعرف حقيقة ما يحدث.

- أظن أنه يجب أن تفعل لأنه أمر مثير ومسلّ حقاً.

فقلت بحدة: إنه ليس مسلّياً. أريد أن تساعديني يا هرميا.

- أساعدك؟ وكيف ذلك؟

- أن تتحرّي معي كي نعرف ماذا يحدث وراء كل ذلك.

- ولكن يا عزيزي مارك... إن العمل متراكم لدي في الوقت الحالي، ويوجد المقال الذي يجب أن أكتبه للجريدة، كما توجد المسألة البيزنطية، ثم إنني قد وعدت اثنين من تلامذتي...

وأخذت تتكلم بصوت رقيق معدّدة الأسباب غير أنني لم أكُن منصتاً إليها، فقاطعتها قائلاً: إذن أنت مثقلة بالعمل الآن، أليس كذلك؟

- بلى، هو كذلك.

ثم تنهّدت بارتياح ونظرت إليّ مبتسمة، ومرة أخرى أدهشني ذلك التسامح الذي يبدو في عينيها والذي يشبه تسامح الأم لابنها الصغير الذي تشغله لعبته الجديدة، ولكنني لم أكُن طفلاً.

* * *

حاولت الاتصال بجيم كوريغان في صباح اليوم التالي، ولكن باءت محاولاتي كلها بالفشل، وفي آخر الأمر لم يسعني إلا أن أترك له رسالة أطلب منه فيها أن يقابلني فيما بين الساعة السادسة والسابعة إذا تمكّن من ذلك لتناول كوب من القهوة معي. ولكنني كنت أعلم أن مشاغله كثيرة فلم أكُن أتوقع أن يأتي في مثل ذلك الوقت القصير، ومع ذلك فقد أقبل بعد الساعة السابعة بعشر دقائق، فأعددت له القهوة ثم شرحت له سبب استدعائي له وعقبت قائلاً: ولا ريب أنك تتساءل لماذا استدعيتك بهذه الصورة العاجلة، ولكن وقع شيء قد يكون له علاقة بالموضوع الذي تحدّثنا عنه في لقائنا الأخير.

- وما هو ذلك الموضوع؟ نعم، تذكّرت. مقتل الأب غورمان.

- أجل، ولكن قبل كل شيء، هل تعني عبارة الحصان الأشهب شيئاً بالنسبة إليك؟

- الحصان الأشهب... الحصان الأشهب؟ لا، لا أعتقد ذلك. لماذا؟

- لأنني أعتقد أنه قد يكون لها صلة بقائمة الأسماء التي عرضتها عليّ. لقد ذهبت إلى الريف مع بعض الأصدقاء في مكان يُعرف باسم ماتش ديبنغ، ثم مضوا بي إلى مقهى قديم، أو إلى بيت كان يُعرف فما سبق باسم مقهى الحصان الأشهب.

- مهلاً، ماتش ديبنغ، أهي على مقربة من بورنموث؟

- على بُعد خمسة عشر كيلومتراً منها.

- هل التقيت برجل يُدعى فينابلز هناك؟

- نعم، هذا ما حدث.

فهتف كوريغان بانفعال قائلاً: هل التقيت به حقاً؟ أي نوع من الرجال هو؟

- إنه رجل مدهش.

- حقاً؟ وما وجه الدهشة فيه؟

- إنه رجل قوي الشخصية على الرغم من أنه مشلول و...

فقاطعني كوريغان بحدة قائلاً: وماذا؟

- لقد أُصيب في عموده الفقري منذ سنوات، وهو مشلول من وسطه إلى قدميه.

وارتدّ كوريغان في مقعده إلى الخلف عابس الأسارير ثم قال:

هذا يهدم كل شيء. لقد كنت أحدّث نفسي وأقول إن الأمر يبدو من السهولة بحيث لا يمكن أن يكون صحيحاً.

- أنا لا أفهم شيئاً.

- يجب أن ترى المفتش ليغون وسوف يهتم جداً بما لديك من معلومات، فعندما قُتل الأب غورمان طلب ليغون المعلومات من كل من رأى القسيس في الشارع في تلك الليلة، وكانت أغلب الشهادات التي جاءته تافهة ليست ذات أهمية كما هو الحال في مثل هذه المناسبة، ولكن صيدلياً يُدعى أوسبورن يدير صيدلية في ذلك الحيّ قال إنه رأى الأب غورمان يسير في تلك الليلة ورأى رجلاً آخر يتبعه ثم ذكر له أوصافاً دقيقة. ومنذ أيام تسلّم ليغون خطاباً من هذا الـ... أوسبورن يقول فيه إنه اعتزل العمل وإنه يقيم الآن في بورنموث، وإنه رأى الرجل المذكور في إحدى الحفلات الخيرية يتنقل بمقعد متحرّك، وإنه تحرّى عنه وعرف أن يُدعى فينابلز.

ثم نظر كوريغان إليّ متسائلاً فأومأت برأسي وقلت: هذا صحيح. إن اسمه فينابلز وكان موجوداً في الحفلة، ولكن من المحال أن يكون هو الذي تبع الأب غورمان في تلك الليلة. هذا محال طبعاً! لقد أخطأ أوسبورن.

- لقد وصفه وصفاً دقيقاً، طوله وأنفه الذي يبدو أشبه بالمنقار، وكذلك تفاحة آدم.

- هذه أوصاف فينابلز حقاً، ومع ذلك...

- أنا أعلم أن السيد أوسبورن لا يمكن أن يكون معصوماً من الخطأ كما يعتقدون، ولا ريب أنه ذهب ضحية تشابه، ولكن من المزعج حقاً أن أسمع أنك ذهبت إلى هذا المكان وأن تتكلّم عن

حصان أشهب. ما قصة هذا الحصان؟ دعني أسمع قصّتك.

فقلت: أنت لن تصدّق كلمة واحدة منها، وأنا نفسي ما زلت لا أستطيع تصديقها.

- تكلّم وأسمعني قصّتك.

فرويت له حديثي مع تيرزا غراي، وكان ردّ الفعل سريعاً، فقد قال: ما هذا الهراء؟ ماذا بك يا مارك؟ دجاج أبيض؟! للتضحية طبعاً!

- أجل، للتضحية.

- ثم وسيط وساحرة القرية وعانس متوسطة العمر في مقدورها أن تستخدم أشعة الموت! هذا جنون مطبق يا رجل.

فقلت باقتناع: أجل، هذا جنون.

- كُفّ عن موافقتي على كل ما أنطق به يا مارك؛ فأنت بهذا تجعلني أعتقد أنه يوجد شيء حقاً، ولكنك تعتقد أنه يوجد شيء، أليس كذلك؟

- دعني أُلقِ عليك سؤالاً أولاً، هل صحيح ما يقال من أن الرغبة في الموت تكمن في داخل كل منا؟

فتردّد كوريغان لحظة ثم قال: أنا لست عالماً نفسياً، وإذا أردت الدقة فأنا أعتقد أن نصف هؤلاء الناس حمقى تُسكرهم الأقوال والنظريات ويصدّقونها إلى حدّ كبير، ويمكنني أن أقول لك إن رجال الشرطة لا يعتمدون على أقوال الطبيب النفسي الذي يأتي إلى منصة الشهود لتبرير جريمة رجل قتل امرأة لا حول لها ولا قوة ليسلبها ما ادّخرته من أموال.

– إذن أنت تفضّل نظريتك التي تقوم على تشريح الجثث، أليس كذلك؟

– بلى، هو كذلك، وأعترف بأنني رجل نظري أنا الآخر، ولكن نظرياتي تستند إلى أسباب وأُسس علمية، أما فيما يتعلق بهذه القصة بالذات...

– هذا معناه أنك لا تؤمن بالعقل الباطن.

– بل أؤمن به، ولكن في حدود المعقول. صحيح أنه توجد داخل كل منا رغبة كامنة في الموت ولكنها مجرّد رغبة لا أكثر، وإذا أردت أن تعرف المزيد فاذهب واشترِ كتاباً في علم النفس واقرأه.

– ولكن تيرزا غراي تزعم أنها تعلم عن هذا الموضوع الكثير.

– هذا هراء؛ إذ كيف يمكن لعانس تعيش في القرى أن تعرف شيئاً عن علم النفس؟

– هذا ما يقوله الناس دائماً عن الاكتشافات التي تتجاوز إدراكهم، فقد قالوا عن البوارج الحربية إنها هراء، كما قالوا عن الطائرات إنها هراء، و...

فقاطعني قائلاً: هذا معناه أنك ابتلعت كل شيء، الطعم والشصّ والصنارة.

– إطلاقاً، وإنما أردت أن أعرف إذا كان كل ذلك يقوم على أساس علمي أم لا.

فقال متهكّماً: أساس علمي؟

وضحك فقلت: على الأقل يمكنك أن تذكر لي ماذا تمّ بشأن قائمة الأسماء.

- لقد بذل رجال الشرطة كل ما في وسعهم، ولكن هذه الأمور تتطلب وقتاً ونوعاً من الروتين، فهي أسماء لا عناوين لها، وإذا أردت الدقة هي ألقاب ليس من السهل معرفة أسماء أصحابها.

- دعنا ننظر إليها من ناحية أخرى. أنا أراهنك بما تريد على أن كل هذه الأسماء ظهرت في مدى سنة أو سنة ونصف في صفحة الوَفَيات، فهل أنا على حق؟

فنظر إليّ نظرة غريبة وقال: نعم، أنت على حق، وهذا أسوأ ما في الأمر.

- هذه هي الصلة التي تربط بينهم جميعاً، أعني «الموت».

- أجل، ولكن يبدو أنه لا أهمية تُذكر لذلك يا مارك. ألا يخطر ببالك كم يموت من الناس كل يوم في البلاد؟ إن أكثر هذه الأسماء شائعة وهذا ما يجعل الأمر شديد الصعوبة.

فقلت: ديلا فونتين؟ ماري ديلا فونتين ليس اسماً شائعاً، وهي قد دُفنت يوم الثلاثاء الماضي على ما أعتقد.

- وكيف عرفت ذلك؟

- من إحدى صديقاتي.

- يمكنني أن أقول لك إنها ماتت ميتة طبيعية، وقد تحرّى رجال الشرطة الأمر. كل الذين جاءت أسماؤهم في القائمة ماتوا ميتة طبيعية، ولو أن الأمر كان غير ذلك لبدا مشبوهاً، ولكنهم

ماتوا بالتهاب رئوي أو بنزيف في المخّ أو بعُسر هضم.

فأومأت برأسي وقلت: أجل، كلّها أمراض عادية تتسبب في الموت، تماماً كما قالت تيرزا غراي.

– هل تريد أن تقول إن تلك المرأة يمكن أن تتسبّب في إصابة شخص لم ترَه قطّ بالتهاب رئوي ينتج عنه موته؟

– أنا لا أقول شيئاً كهذا وإنما هي التي تزعم ذلك، وقد كان بودّي أن أعتقد استحالة ما تقول، ولكن توجد عوامل غريبة حقاً، مثل مجرّد ذكر الحصان الأشهب عند إبداء الرغبة في التخلص من شخص ما، وهذا الحصان الأشهب موجود، والمرأة التي تقيم فيه تقول إن مثل هذه العملية ممكنة الوقوع، كما أن الرجل الذي زعم الصيدلي أنه كان يتبع الأب غورمان في الليلة التي لقي مصرعه فيها يعيش في الجوار.

– لا يمكن أن يكون فينابلز؛ فأنت تقول إنه مشلول منذ سنوات.

– أليس من الجائز أنه يتصنّع الشلل؟

– لا يمكنه ذلك لأن أطرافه ضامرة وقد توقّفت عن النموّ منذ وقت طويل.

فتنهّدت وقلت: هذا ينهي الموضوع، وهو أمر مؤسف. ولكن إذا كانت توجد منظمة للتخلص من الأشخاص غير المرغوب فيهم حقاً فإنني لا أرى أحداً غير فينابلز على رأسها؛ فهو رجل يتمتع بذكاء عجيب. وإنني لأتساءل، من أين أتته الثروة التي يعيش منها والتي مكّنته من جمع كل التحف والمفروشات الثمينة التي يزخر بها قصره، و...

وصمتّ لحظة ثم استطردت قائلاً: مَن الذين استفادوا من موت كل أولئك الأشخاص الذين ماتوا تلك الميتة الطبيعية؟

- دائماً يوجد مَن يستفيد من موت الغير. لم تكُن توجد ظروف مريبة إذا كنت تعني هذا، ولا شكّ في أنك تعلم أن السيدة هسكس ديبوا تركت ما يقرب من خمسين ألف جنيه ورثها ابن وابنة خالتها، والابن يعيش في كندا والابنة فمتزوّجة وتقيم في شمال إنكلترا، وكلاهما ليس في حاجة إلى المال. أما تومازينا توكرتون فقد ترك لها أبوها ثروة كبيرة على أن تؤول إلى زوجته إذا ماتت الفتاة قبل أن تبلغ سنّ الرشد وتتزوّج، ويبدو أن زوجة الأب بعيدة عن الشبهات. ثم إنه توجد السيدة ديلا فونتين التي ورثتها ابنة عمّ لها.

- وأين تقيم هذه الأخيرة؟

- في كينيا مع زوجها.

- أي أنهم كلهم غائبون.

فنظر كوريغان إليّ بضيق وقال: وقد مات ثلاثة من آل ساندفورد، ترك أحدهم زوجة شابة تصغره بكثير، ثم لم تلبث أن تزوّجت برجل آخر، وقد ثبت من التحقيق الذي قمنا به أنه ما كان ليرضى أن يمنحها الطلاق لو أنه بقي على قيد الحياة. كما مات سيدني هارموند سوورث بسبب نزيف في المخّ، وكان رجال الشرطة يشتبهون في أنه يحصل على مبالغ كبيرة من المال بواسطة الابتزاز من عدد من الناس كان يهدّدهم بإفشاء أسرارهم، ولا ريب أنهم تنفسوا الصعداء بعد موته.

- لعلك توافقني على أن كل تلك الوَفَيات وقعت في الوقت المناسب.

- وماذا تعلم عن كوريغان؟

- إنه اسم شائع، وقد مات كثيرون يحملون هذا الاسم، ولكن لم يستفِد أحد من موتهم.

- إذن أنت الضحية التالية كما تدلّ الشواهد، فكُن على حذر يا صاحبي.

- سوف أفعل، ولكن لا تحسب أن في مقدور ساحرتك أن تصيبني بمرض السرطان أو الحمى الإسبانية؛ فأنا طبيب وأعرف كيف أُعنى بنفسي.

-جيم، وددت لو أن أتحرّى عن تيرزا غراي هذه، فهل أطمع في مساعدتك؟

- لا يا صاحبي، لا أستطيع أن أفهم كيف أن شخصاً مثقفاً مثلك يخدعه مثل هذا الهراء!

فتنهّدت وقلت: ألا يمكن أن تستخدم كلمة أخرى؟ لقد سئمت هذه الكلمة.

- هذه الخزعبلات إذا أردت. أنت رجل عنيد يا مارك.

فقلت: لا بدّ لأحد أن يهتمّ بتلك المرأة على كل حال.

* * *

الفصل العاشر

كان طريق غندوفر كلوز طريقاً حديثاً أُنشئ منذ وقت غير بعيد على صورة نصف دائرة، ولم يكُن العمّال قد فرغوا من تمهيده بعد، وفي آخره باب حديدي عُلّقت عليه لافتة صغيرة تحمل اسم فيلاّ إفرست، وفي حديقة الفيلاّ كان يوجد رجل يزرع بعض الزهور عرف فيه المفتش ليغون زاكاريوس أوسبورن. وما كاد المفتش يدفع الباب حتى اعتدل أوسبورن كي يرى مَن ذلك الذي يقتحم عليه المكان، وعندما عرف زائره انتفخت أوداجه سروراً وزهواً. وكان مشمراً عن ساعدَيه وينتعل حذاءً ضخماً، ولكنه على الرغم من ذلك كان بادي العناية بنفسه.

وصاح أوسبورن قائلاً: صباح الخير أيها المفتش، لقد شرفتني بزيارتك هذه. لقد جاءني خطابك ولكنني لم أكُن أتوقع أن أراك شخصياً. مرحباً بك في قصري الصغير، مرحباً بك في إفرست. أظن أن هذا الاسم يثير دهشتك، ولكنني تتّبعت رحلة السير أدموند هيلاري إلى قمة إفرست بكل اهتمام. يا له من رجل عظيم! إنه يتمتع بطاقة كبيرة من الاحتمال، وأظن أنه لا يوجد من يتمتع بها مثله. أنا أقدّر شجاعة هؤلاء الرجال الذين يمضون لغزو الجبال التي لم يسبقهم إليها أحد، أو الذين يذهبون إلى أقصى بلاد الشمال لاكتشاف أسرار القطب. تفضّل.

وصحب أوسبورن المفتش إلى داخل الفيلاّ، وصحيح أنها منسّقة ولكنها كانت مفروشة بطريقة تدلّ على البخل الشديد. قال الصيدلي الأسبق: إنني لم أفرغ من تجهيز البيت كما يجب بعد، ولكنني أحافظ على حضور المزادات؛ ففيها أثاث فخم يباع بربع الثمن العادي. ماذا أستطيع أن أقدم لك؟ القهوة أم الشاي؟

اختار ليغون القهوة، واختفى السيد أوسبورن ثم عاد بعد لحظات ومعه كوبان من القهوة وقال: سوف نجلس ونستجمّ قليلاً.

وصمت برهة ثم استطرد قائلاً: إفرست. إن الاسم يحمل معنى مزدوجاً، فأنا أحب المزاح دائماً.

ثم رشف رشفة من فنجانه بغبطة وارتياح ثم قال: هل أفادتك معلوماتي؟

- لسوء الحظ ليس كثيراً كما كنا نرجو.

- آه، كم أنا شديد الشعور بالخيبة الآن! إلا أنني أفهم تماماً أن مجرّد أن يتبع رجل نفس الطريق الذي سلكه الأب غورمان لا يعني أن يكون هو قاتله، ولكن لو صحّ هذا لكان جميلاً. وهذا السيد فينابلز رجل ثري محترم ينتمي إلى أحسن الأندية الاجتماعية.

فقال ليغون: الحق أن الرجل الذي رأيته يتبع الأب غورمان لا يمكن أن يكون فينابلز.

فهبّ السيد أوسبورن واقفاً وقال: إنه هو، وأنا على يقين من ذلك، فأنا لا أنسى وجهاً رأيته أبداً.

- لعلك أخطأت هذه المرة؛ فالسيد فينابلز أُصيب بالشلل منذ ثلاث سنوات، ولا يمكنه أن يستخدم ساقَيه.

فصاح السيد أوسبورن قائلاً: الشلل؟ يبدو أن هذا ينهي المسألة. ومع ذلك معذرة أيها المفتش، أنا لا أريد الحطّ من قدرك، ولكن هل حصلت على دليل طبّي يثبت ذلك؟

– نعم، إن السير ويليام ويغديل، الطبيب المعروف الذي تقع عيادته بشارع هارلي، هو الذي يعالج السيد فينابلز منذ سنوات.

– طبعاً، طبعاً، إن ذلك الطبيب يتمتع بشهرة كبيرة. حسناً، يبدو أنني أخطأت، ومع ذلك فقد كنت متأكداً كل التأكّد. يبدو أنني أزعجتك دون مبرّر.

فقال ليغون على الفور: لا داعي إلى الاعتذار يا سيد أوسبورن لأن المعلومات التي زوّدتني بها ما زالت لها قيمتها، فمن الواضح أن الرجل الذي رأيته يشبه السيد فينابلز شبهاً كبيراً، وبما أنه وُجدت مميزات وأوصاف خاصة تميّز هذا الأخير عن غيره من الرجال فإن مجال البحث قد أصبح ضيّقاً.

فقال أوسبورن وقد اطمأن بعض الشيء: هذا صحيح، ولا يوجد مجرمون كثيرون يشبهون السيد فينابلز. لعل في ملفاتكم باسكتلنديارد...

وصمت ونظر إلى المفتش نظرة مفعَمة بالأمل ولكن ليغون قال له: ليس الأمر بمثل هذه السهولة؛ فمن الجائز أن لا يكون له ملف عندنا، وكما قلت لا يوجد ما يدلّ على أن له علاقة بمقتل الأب غورمان.

فبدت أمارات الخيبة على ملامح السيد أوسبورن من جديد وقال: أنا متأكد مما قلت، ولو حدث وطُلب منّي أن أشهد في المحكمة لتمسّكت برأيي رغم كل شيء.

فنظر ليغون إلى محدّثه بتأمّل ثم قال: ولماذا تتمسّك برأيك؟

فبدت الدهشة على وجه الصيدلي وقال: لأنني على يقين. أنا لا أفهم معنى نظرتك هذه! لقد أخطأت ولم يصبح ليقيني أي أساس في نظرك، ولكنني ما زلت أشعر أنني على يقين من ذلك.

- لا ريب أنك تتساءل عن سبب قدومي إليك ما دمت قد حصلت على تقرير طبّي يثبت أن السيد فينابلز بعيد عن كل شبهة. لقد أتيت لأن وصفك للقاتل كان من الدقة بحيث أثار دهشتي، وأرجو أن تتذكر أن الضباب كان منتشراً في ذلك اليوم. وقد ذهبت أنا بنفسي إلى الصيدلية ووقفت ببابها ونظرت إلى الرصيف المقابل فبدا لي أنه من المستحيل تمييز ملامح أي شخص بوضوح من مثل هذه المسافة الكبيرة.

- أنت على حق بعض الشيء. لقد كان الضباب منتشراً فعلاً، ولكن كانت الرؤية ما تزال واضحة في بعض الأماكن، وهكذا استطعت أن أرى الأب غورمان والرجل الذي يتبعه بوضوح، أضِف إلى ذلك أن الرجل أخرج قداحته وأشعل لفافة تبغ عندما أصبح عند مستوى نظري، وفي تلك اللحظة رأيت الأنف والذقن وتفاحة آدم. إنه لم يأتِ إلى الصيدلية قبل ذلك قط، ولو أنه جاءني لتذكّرته إلى أن أموت.

فقال ليغون وهو يفكر: آه، لقد فهمت الموقف الآن.

فعاد أوسبورن يقول: ألا يمكن أن يكون له أخ توأم؟ لو صحّ ذلك لفرغنا من هذه المسألة.

فابتسم ليغون وهزّ رأسه ثم قال: هذا مُحتمل الوقوع في

الروايات، ولكنه بعيد الاحتمال في الحياة الواقعية، بل إنه أمر لا يقع البتة. ثم إن السيد فينابلز وحيد لا أخوة له على ما أعتقد.

فقال السيد أوسبورن: على ما تعتقد؟

- على الرغم من أنه إنكليزي الجنسية فقد وُلد في الخارج وجاء أهله إلى إنكلترا وهو في الحادية عشرة من عمره.

- يبدو لي أنك لا تعرف الكثير عنه أو عن أسرته.

فأجاب ليغون معترفاً قائلاً: هذا صحيح. إن عملنا ليس بالعمل الهيّن، إلا إذا ذهبنا إليه واستجوبناه مباشرة، ولكن ليس لدينا أي سبب لذلك.

وكانت توجد وسائل كثيرة للتصرف طبعاً، ولكنه لم يكُن في نيته أن يُطلِع السيد أوسبورن عليها. ثم قال: إذا لم نأخذ التقرير الطبي مأخذ الاعتبار فهل تظل على يقينك من أنه هو فينابلز؟

- نعم، إنّ تذكّر الوجوه هو هوايتي الوحيدة.

فتنهّد ليغون وقال: وددت لو أنني قابلت شاهداً مثلك في المحكمة. إن التعرّف على الناس عملية خادعة دائماً، ومعظم الناس لا يستطيعون تذكر أي شيء ويقولون دائماً: أظنه طويل القامة، أشقر الشعر أو قريباً إلى ذلك، عاديّ المظهر، أزرق العينين أو أسمرهما أو لعله عسليّ العينين، يرتدي معطفاً أسمر أو لعله أزرق.

فضحك السيد أوسبورن وقال: ومثل هذه الشهادة لا تعجبك طبعاً.

- هل تريد الصراحة؟ إن شاهداً مثلك يُعتبر مكسباً كبيراً.

فبدت أمارات الارتياح على وجه أوسبورن وقال: إنها موهبة كنت أنميها حتى أثمرت. يمكنك أن تأتيني بصينية فوقها أشياء كثيرة مختلفة الأنواع، ويكفي أن أُلقي عليها نظرة واحدة كي أطبع في ذهني كل ما عليها، ثم أذكر لك بعد ذلك كل ما كان فوقها بدقة. إن هذا يثير دهشة الجميع، ولكن ليس في هذا أية غرابة؛ فهي مسألة عادية لا أكثر، ثم إنني أقوم بحيل الحواة كذلك. معذرة أيها المفتش، ولكن ما هذا الذي في جيبك؟

وانحنى فوق المفتش وأخرج من جيبه منفضة صغيرة للفافات التبغ وهو يقول: ألا تستحي يا سيدي وأنت من رجال الشرطة أن...

وأغرق في الضحك وشاركه ليغون الضحك، ثم تنهّد أوسبورن وقال: إن لي بيتاً جميلاً وجيراني قوم ظرفاء، وقد تمنيت هذه الحياة منذ وقت طويل، ولكنني أعترف لك بأنني أشتاق إلى الصيدلية وإلى مراقبة الناس وهم يروحون ويغدون. طالما تمنّيت أن تكون لي حديقة زاخرة بالفراشات والعصافير، ولكنني لم أكُن أظن أنني سأشتاق إلى حياتي السابقة هكذا. لقد قضيت عطلة الأسبوع في فرنسا وكانت رحلة جميلة استمتعت بها حقاً، ولكنني شعرت بأنني بعيد عن بلادي وأن إنكلترا تكفيني، فقرّرت أن لا أرحل عنها بعد اليوم. إن طبيعتي غريبة حقاً! أنا لم تكُن تشغلني غير فكرة واحدة هي أن أعتزل العمل، ولكنني الآن أفكر جدياً في أن أشتري نصيباً في صيدلية ببورنموث، لا لشيء إلا لكي أجد ما أعمله دون الاضطرار إلى الذهاب إلى الصيدلية في مواعيد ثابتة. إلى الملتقى أيها المفتش، ويؤسفني أنني لم أستطع مساعدتك، وإذا جدّ شيء...

فقاطعه المفتش ليغون قائلاً: سوف أُطلعك عليه على الفور.

ثم ابتعد مسرعاً، ووقف أوسبورن بالباب يتابعه ببصره وهو يحدّث نفسه قائلاً: التقرير الطبّي؟ يا لغباء رجل الشرطة! لو أنهم عرفوا نصف ما أعرفه عن الأطباء! تقرير طبّي؟

* * *

الفصل الحادي عشر

(برواية مارك إيستربروك)

هرميا أولاً وكوريغان بعد ذلك، لا بأس. لقد تعرّضت للسخرية وتقبّلت السخافات على أنها حقيقة واقعة، واستطاعت تيرزا غراي أن تؤثر فيّ بحيث أخذت أباطيلها على أنها واقع مسلّم به، فلم أكُن أكثر من غبي! ثم عقدت العزم على أن أترك كل شيء وأنسى كل ما يمتّ إلى تلك القصة اللعينة بصِلة، ولكنني لم ألبث أن سمعت صوت السيدة دين كالتروب تقول لي: يجب أن تفعل شيئاً.

ولكن الكلام شيء والعمل شيء آخر، ولا بدّ أن يساعدني أحد. وقد طلبت المساعدة من هرميا ثم من الدكتور كوريغان غير أنهما رفضا ولم يعُد أمامي أحد آخر، اللهم إلا...

وجلست أفكّر في الأمر، وفجأة أسرعت إلى الهاتف فاتصلت بالسيدة أوليفر التي قالت بعدما تبادلنا عبارات التحية: ماذا تريد؟

- هل يمكنك أن تذكري لي اسم الفتاة التي كانت معنا في الحفل؟

- أعتقد ذلك، دعني أتذكر. نعم، اسمها جنجر.

- أعرف أن اسمها جنجر، ولكن ما هو لقبها؟

- هذا ما لا أعرفه وأظن أنني لم أسمعه، فقد كانت تلك أول مرة التقي بها.

وصمتت السيدة أوليفر لحظة ثم قالت: اتصل برودا واسألها.

ولم أكن أريد ذلك لأنني كنت أشعر بشيء من الحياء من ابنة عمي، فقلت: لا أستطيع أن أفعل ذلك.

فقالت السيدة أوليفر تشجّعني: ولكنه أمر بسيط، فما عليك إلا أن تقول إنك نسيت العنوان الذي أعطته جنجر لك وإنك لا تذكر لقبها، وإنك قد وعدتها بأن ترسل إليها أحد كتبك، أو أن تدلّها على اسم محلّ يبيع بيض السمك بثمن زهيد، أو أن تعيد إليها منديلاً أعارته لك حين نزف أنفك، أو عنوان صديق ثري يريد إصلاح لوحاته أو أي شيء من هذا القبيل. إنني أستطيع أن أجد لك أسباباً كثيرة إذا أردت.

فقلت بثقة: يكفيني أحد هذه الأسباب.

ووضعت السمّاعة ثم طلبت رودا وكلّمتها، فردّت عليّ هذه الأخيرة قائلة: جنجر؟ نعم. إنها تقيم في مسكن صغير بميدان كالجاري رقم ٤٥. انتظر لحظة، سأبحث لك عن رقم هاتفها.

وألقت بالسمّاعة، وبعد قليل عادت وقالت: كابريكورن رقم ٣٥٩٨٧. هل دوّنت الرقم؟

- نعم، شكراً. ولكنني لا أعرف لقبها فأنت لم تذكريه لي.

- لقبها؟ نعم. كوريغان، اسمها كاترين كوريغان. ماذا قلت؟

- لا شيء، شكراً لك يا رودا.

كانت مصادفة غريبة. كوريغان؟ شخصان يحملان لقب كوريغان، لعله فأل حسن!

ثم أدرت قرص الهاتف.

* * *

جلست جنجر أمامي في مطعم الببغاء البيضاء حيث تواعدنا على اللقاء. كانت نضرة كما رأيتها في ماتش دينغ بشعرها الأحمر ووجهها الذي يعلوه النمش وعينيها الخضراوين، وكانت ترتدي زيّها الفنّي الذي ترتديه في لندن حين تزاول عملها، وهو عبارة عن بنطال وقميص من قماش الجورسيه وجورب أسود، ولكنها كانت هي جنجر التي رأيتها في الحفل والتي أحسست بميل كبير إليها. ثم قلت لها: لقد بذلت الكثير كي أصل إلى اسمك وعنوانك ورقم هاتفك، ولم أكُن أعرف شيئاً من كل ذلك. لقد كانت مشكلة كبيرة.

ثم ذكرت لها قصّتي، ولم تأخذ منّي وقتاً طويلاً كما حدث مع هرميا لأنها كانت تعرف الحصان الأشهب، وعندما فرغت من قصّتي حوّلت عيني عنها لأنني لم أشأ أن أرى نظرتها الساخرة أو المتسامحة، ولكنها قالت لي باهتمام: أهذا كل شيء؟

فأجبتها قائلاً: نعم.

- وماذا تنوي أن تفعل؟

- هل تعتقدين أنه يجب عليّ أن أفعل شيئاً؟

- طبعاً، يجب أن تفعل شيئاً؛ فلا يمكن أن تترك عصابة خطيرة كهذه تقتل الناس دون أن تفعل شيئاً!

- ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟

وفي تلك اللحظة وددت لو أنني قفزت فرحاً بها. وأخذت أشرب الشاي وقد سرت الحرارة في جسدي لأنني لم أعُد وحدي، ثم قلت: أنا معك في هذا. ولكن كيف؟

- يبدو أنه يوجد أثر أو أثران يمكن أن نهتدي بهما، وقد أستطيع مساعدتك.

- هل تفعلين؟ وماذا عن عملك؟

فعبست مرة أخرى وأخذت تفكر ثم قالت: أستطيع أن أفعل الكثير بعد أوقات العمل. وصمتت برهة ثم استطردت قائلة: تلك الفتاة، أعني التي تناولت معكم العشاء في مطعم فانتازيا، بوبي أو شيء من هذا القبيل... إنها تعرف شيئاً ويجب أن تقول لنا ما الذي تعرفه.

- أجل، ولكنها خائفة ولا تريد أن تتكلّم.

فقالت بثقة: أستطيع التدخل لمساعدتك، وسوف تخبرني بما لم تستطع إخبارك به. هل يمكن أن تدبّر لنا لقاءً، هي وصديقها وأنا وأنت، كأن تدعوهما إلى مسرحية أو عشاء أو شيء من هذا القبيل؟ ولكن قد يكلّفك هذا الكثير.

فأكّدت لها أنني أستطيع مواجهة النفقات، ففكرت لحظة ثم قالت ببطء: أما أنت فإنني أعتقد أن خير ما يمكنك أن تفعله هو أن تهتم بتومازينا توكرتون.

- وكيف ذلك؟ لقد ماتت!

- لقد أراد أحدهم أن تموت، هذا إذا كانت نظريتك صحيحة، وقد دبّر أمره مع الحصان الأشهب بحيث لا يسعنا إلا أن نواجه أحد احتمالين، وهما إما أن يكون ذلك الشخص زوجة أبيها أو الفتاة التي تشاجرت معها في مقهى لويجي بسبب الشاب الذي استمالته إليها، فمن الجائز أنها كانت تنوي أن تتزوّجه، ولعل هذا لم يعجب زوجة الأب أو صديقتها التي تشاجرت معها فلجأت واحدة منهما إلى الحصان الأشهب. من الجائز أن نعثر على أثر هناك. ما اسم تلك الفتاة؟ هل تعرفه؟

- أعتقد أن اسمها لُو.

- أهي متوسطة القامة قصيرة الساقين ذات شعر جعْد؟

وكانت الأوصاف مطابقة، وعندما ذكرت لها ذلك استطردت قائلة: أعتقد أنني التقيت بها أكثر من مرة وأن اسمها لُو أِليس، وهي على جانب كبير من الثراء.

- لا يبدو عليها ذلك.

- لا يبدو ذلك على فتيات اليوم، ومع ذلك فإن أغلبهن على جانب كبير من الثراء.

- على كل حال إن في مقدورها أن تدفع للساحرات الثلاث أتعاباً كبيرة لأنني أعتقد أنهن لا يقُمن بمثل هذا العمل مجاناً.

- هذا يبدو بعيد الاحتمال فعلاً. اذهب وتحرّ أنت عن زوجة الأب؛ فهذا عمل يصلح لك أكثر منّي.

- ولكنني لا أعرف أين تقيم.

- إن لويجي يعرف الكثير عن توماز‌ينا، ولا شك أنه يعرف ذلك. كم نحن أغبياء! إن إعلان الوفاة قد نُشر في جريدة التايمز، وبذلك يمكنك أن تذهب إلى مكتب الجريدة وتبحث عن ذلك الإعلان.

فقلت وأنا أفكر: يجب أن يكون لدي سبب ما للزيارة.

فقالت جنجر: هذا أمر من السهل تدبيره.

وصمتت برهة ثم استطردت قائلة: أنت رجل مؤرّخ وتلقي محاضرات، ومعك خطابات باسمك، وسوف تهتم السيدة توكرتون بمقابلتك وسيتملّكها الغرور.

- ولكن لأي سبب؟

فقالت جنجر: يمكنك أن تبدي لها اهتمامك ببيتها، إذا كان بيتاً قديماً.

فقلت معترضاً: ولكنني لا أفهم شيئاً في هذه الناحية.

فقالت: وكيف تعرف هي ذلك؟ إن الناس يعتقدون دائماً أن البيت الذي يزيد عمره على مئة سنة يمكن أن يثير اهتمام المؤرخين وعلماء الآثار، ثم إنك قد تجد لديها بعض اللوحات الفنية. ومهما يكُن اعمل على مقابلتها وحاول أن تكسب ودّها، ثم قل لها إنك التقيت بابنتها، أعني ابنة زوجها، وسوف ترى تأثير هذه الكلمات عليها، ثم اذكر فجأة وبلا مناسبة شيئاً عن الحصان الأشهب.

- وماذا بعد ذلك؟

- راقب ما ستحدِثه كلماتك هذه من ردّ فعل في نفسها. إنك إذا ذكرت الحصان الأشهب بلا مناسبة وكان ضميرها حياً فأنا واثقة

أنه سيصدر منها ما يريب.

- وإذا حدث ردّ فعل كما تقولين، فما العمل؟

- المهم أن نتأكّد من أننا نسعى وراء الأثر الصحيح، وإذا ما وُفّقنا فسوف نستطيع أن نتقدّم إلى الأمام.

وصمتت برهة ثم استطردت قائلة: ولكن يوجد شيء آخر. لماذا تظن أن الآنسة تيرزا قالت لك ذلك؟ ولماذا كشفت نفسها هكذا؟

- إن الردّ المعقول هو أنها إنما فعلت ذلك غباءً منها.

- أنا لا أعني هذا، وإنما أعني لماذا كشفت نفسها لك أنت بالذات؟ إنني أتساءل إذا لم تكُن توجد صلة...

فقاطعتها قائلاً: صلة؟!

- انتظر لحظة حتى أركّز أفكاري.

فانتظرت، ثم أومأت جنجر برأسها مرتين بحدّة وقالت: لنفترض جدلاً أن الأمر يحدث هكذا. إن الفتاة بوبي تعرف ما يدور في الحصان الأشهب معرفة سماعية، أعني أنها سمعت بعض الناس يتكلّمون عنه، وكانت من ذلك النوع من الفتيات اللاتي لا يفطن إليهن أحد في أثناء الحديث، ولنفترض أن بعضهم سمعها تتحدث معك عن الحصان الأشهب فزجرها وطلب منها أن تطبق فمها، ثم عندما تذهب إليها في اليوم التالي كي تسألها يتملّكها الخوف وتلزم الصمت، ولكن أمرك ينكشف فيتساءلون عن سبب فضولك هذا، ولأنك لست من رجال الشرطة فإن السبب الوحيد المعقول هو أنك قد تكون عميلاً.

- ولكن...

- هذا تعليل منطقي، وأنا واثقة من ذلك. لقد سمعتَ بعض الشائعات عن الحصان الأشهب وتريد أن تتحقق لغرض ما في نفسك، ثم لا تلبث أن تظهر بعد ذلك في الحفلة الخيرية بماتش ديبنغ، كما ذهبت بعدها إلى الحصان الأشهب. وكان واضحاً أنك طلبت من القوم أن يذهبوا بك إلى هناك، فماذا يحدث عندئذ؟ تكشف تيرزا غراي نفسها لك.

فقلت: هذا جائز. هل تعتقدين أنها تستطيع أن تفعل ما تقول يا جنجر؟

- أنا شخصياً أميل إلى الاعتقاد بأنها لا تستطيع، ولكن أموراً غريبة تقع في أيامنا هذه، وهي أمور قريبة من الشعوذة، إلا أنها ليست من الشعوذة في شيء. أما بخصوص تيرزا غراي فلا أظنها على حق فيما تقول، ولكنني أخشى كثيراً أن تكون كذلك.

فقلت متجهّماً: أجل، هذا يفسر كل شيء.

وقالت جنجر وهي تفكّر: أستطيع أن أبحث عن لُو وأن أستدرجها إلى ما أريد معرفته. أنا أعرف كل الأماكن التي ترتادها تقريباً، ولكن أول ما يجب عمله هو الاتصال ببوبي.

* * *

وتم الاتصال ببوبي بسهولة؛ إذ لم يكُن يوجد ما يشغل دافيد في الأيام الثلاثة التالية، فاتفقنا على أن نشاهد مسرحية غنائية في الليلة التالية. وقد أقبل هو وبوبي، وبعد المسرحية ذهبنا إلى مطعم فانتازيا لنتناول العشاء، فلاحظت أن جنجر وبوبي ذهبتا إلى دورة المياه لإصلاح شأنهما، وأنهما عادتا وهما على أتمّ ما يكون

من ودّ وصفاء. ولم نطرح الموضوع الذي يهمّنا في بداية الأمر طبقاً لتعليمات جنجر. وأخيراً انصرفنا، فمضيت بجنجر إلى بيتها، فقالت تحدّثني بمرح: لا شيء يُذكر. لقد رأيت لُو والشاب الذي تشاجرت هي وتومازينا بسببه. اسمه جين ملبورن، وهو صعلوك قذر تهيم به الفتيات، وقد كان يغازل لُو عندما استمالته تومازينا إليها، وتقول لُو إن جين لم يهتم بتومازينا قطّ وإنما كان يسعى وراء ثروتها ولكن تومازينا اعتقدت أنه يحبها لشخصها، وقد تخلى عنها بسبب ذلك. ولكنها قالت إن شجارهما لم يكُن حامياً وإنه كان مجرّد عتاب بين فتاتين.

- عتاب بين فتاتين؟ لقد انتزعت شعر تومازينا من منابته.

- لقد قلت لك ما ذكرته لُو لي.

- يبدو لي أنها ثرثارة.

- إن الفتيات يحببن الثرثرة، خصوصاً فيما يتعلق بالرجال الذين يهمن بهم ويتحدثن إلى كل من ينصت إليهن، ومهما يكُن من أمر فإن للُو صديقاً آخر الآن، وهو فتى غبي ولكنها مفتونة به، ولا أعتقد أنها من عملاء الحصان الأشهب؛ فقد ذكرت لها هذه العبارة ولكن لم يظهر عليها أي تأثير، وأظن أننا نستطيع استبعادها من هذه القضية. ماذا فعلت أنت مع زوجة الأب؟

- إنها في الخارج ولن تعود قبل غدٍ، وقد كتبت لها رسالة، أو أمليت على سكرتيرتي خطاباً طلبت فيه منها موعداً.

- حسناً، إن الأمور بدأت تتحرّك. ماذا حدث للمرأة التي استدعت الأب غورمان؟

- لقد ماتت، والحق أنني لا أعرف عنها شيئاً يُذكر سوى أن

اسمها السيدة دافيس.

- إذا استطعنا أن نعرف ماضي تلك المرأة فربما استطعنا أن نعرف ماذا قالت للأب غورمان.

* * *

في صباح اليوم التالي اتصلت بجيم كوريغان هاتفياً وألقيت عليه هذا السؤال فقال: لحظة واحدة. لقد دوّنت شيئاً في دفتري. نعم، إن اسمها الحقيقي هو السيدة آرشر، وكان زوجها لصاً حقيراً لم تلبث أن انفصلت عنه واستعادت اسمها الذي كانت تُعرف به وهي عذراء.

- وأين آرشر هذا الآن؟

- لقد مات، وقد كان شخصاً تافهاً ولصاً حقيراً.

- هذا يعوقنا عن التقدم.

- أجل، هو كذلك. أما الشركة التي كانت السيدة دافيس تعمل بها عند وفاتها فهي شركة تقوم بالإحصائيات عن المواد التموينية، والموظفون فيها لا يعرفون شيئاً عنها ولا عن ماضيها.

فشكرته وأعدت السمّاعة مكانها.

* * *

الفصل الثاني عشر

(برواية مارك إيستربروك)

بعد ثلاثة أيام اتصلت بي جنجر وقالت: عندي لك نبأ هام، اسم وعنوان، فهلاّ سجّلتهما؟

فأخرجت دفتري الصغير وقلت: تكلّمي.

- الاسم هو برادلي، العنوان هو رقم ٧٨ بعمارة البلدية ببرمنغهام.

- حسناً، وما معنى هذا؟

- الله وحده يعلم، لا أدري، ولا أعتقد أن بوبي تعرف شيئاً ما.

- بوبي؟ هل هي...؟

- نعم، لم أتركها إلا بعد أن أخذت منها كل شيء. قلت لك إنني سأحاول استدراجها في الحديث وقد فعلت، وعندما فرغت من ترويضها كان الباقي سهلاً.

فسألتها بفضول: وكيف فعلت ذلك؟

فضحكت جنجر وقالت: لن تفهم شيئاً. إنها مجرّد أسرار نسائية، ويكفيك أن تعلم أننا تناولنا الغداء معاً وأنني حدّثتها قليلاً

عن حياتي العاطفية والعقبات المختلفة التي تعوق طريقي، وهذه العقبات هي أنه رجل متزوّج بزوجة لا تطاق، كاثوليكية تأبى الطلاق وتحيل حياته جحيماً، وهي زوجة كسيحة دائمة المرض وليس من المتوقع أن تموت قريباً، ولكن أفضل شيء لها هو الموت. ثم قلت لها إنني أفكر في اللجوء إلى الحصان الأشهب ولكنني لا أدري كيف أصل إليه، وأخشى أن يتطلب ذلك منّي نفقات باهظة، فأيّدت بوبي قولي هذا وقالت إن النفقات باهظة فعلاً وإنها سمعت أن الحصان الأشهب يزاول هذا العمل، فقلت لها إنني أتوقع الحصول على ثروة كبيرة لأن لي عمّاً ثرياً طاعناً في السن وأكره أن يموت مع أن موته يفيدني أكبر الفائدة، ثم قلت لا شك أنهم يأخذون شيئاً تحت الحساب، ولكني لا أعرف كيف أتصل بهم. وعندئذ ذكرت لي الاسم والعنوان قائلة إن عليّ أن أذهب إلى ذلك الرجل للاتفاق على الناحية المالية.

- هذا شيء غريب!

- إنه كذلك حقاً.

ولزمنا الصمت لحظة ثم سألتها بشكّ قائلاً: هل ذكرت كل هذا طواعية دون أن يتملكها الخوف؟

فقالت جنجر بصبر نافد: أنت لم تفهم. إن ما ذكرته لي لا يُعدّ شيئاً في الواقع يا مارك، ومهما يكُن من أمر فلا بدّ لهم من دعاية كبيرة، هذا إذا صحّ ما نفكر فيه، أعني أنه لا بدّ من توسيع دائرة عملائهم. وأخيراً، هلا ذهبت إلى برمنغ لرؤية السيد برادلي؟

- بالطبع سوف أذهب لرؤيته الآن، هذا إذا كان له وجود.

* * *

لم أكُن أعتقد أنه يوجد رجل باسم برادلي، ولكنني كنت مخطئاً في هذا الاعتقاد؛ فقد كان السيد برادلي موجوداً حقاً. كانت عمارة برمنغهام عمارة كبيرة تزخر بالمكاتب والشركات، وكان المكتب رقم ٧٨ يقع في الدور الثالث وعلى بابه الزجاجي كُتبت العبارة التالية: «ك. ر. برادلي. سمسار» بالحروف السوداء الكبيرة، وتحتها بالحروف الصغيرة عبارة تقول: «تفضّل بالدخول».

فدخلت، وكان المكتب عبارة عن غرفة فسيحة بها مكتب ومقعدان وثيران وهاتف وخزانة لحفظ الملفات وبها السيد برادلي أيضاً، وهو رجل قصير القامة أسود العينين يتجلى المكر والخبث منهما، ويرتدي سُترة داكنة اللون. لقد كان مثلاً للرجل المحترم الوقور، ثم قال بلهجة رقيقة: أغلق الباب خلفك وتفضّل بالجلوس. هل تدخّن؟ لا؟ ما الذي أستطيع أن أؤديه لك؟

فنظرت إليه ولم أدرِ كيف أبدأ الحديث؛ إذ لم تكُن لدي أية فكرة. ولا أدري ما الذي دفعني إلى مخاطبته كما فعلت، لعل عينيه السوداوين هما السبب في ذلك، فقد بادرته قائلاً: كم؟

ففزع الرجل، فتملّكني السرور حين رأيت ذلك. ومرّت به لحظة خطر له فيها أنه يواجه معتوهاً، ولكنه لم يلبث أن رفع حاجبَيه وقال: حسناً، حسناً. أنت لا تحبّ أن تضيع وقتك.

فقلت بإصرار: ما زلت أنتظر ردّك.

فعاد فهزّ رأسه برفق واستهجان قائلاً: ما هكذا يكون الكلام، دعنا نتكلّم كما يجب.

فهززت كتفي وقلت: كم تريد؟ كيف تتكلّم إذن؟

- أنا لم أتشرّف حتى بمعرفة اسمك.

- ليست لديّ أية رغبة في أن أذكره لك في الوقت الحاضر.

- هل أسمّي هذا حرصاً؟

- نعم.

- هذه صفة جميلة، ولو أنها تكون مزعجة أحياناً. مَن الذي أرسلك إليّ؟ ومن هو صديقنا المشترك؟

- لا أستطيع أن أذكر لك اسمه. إنه واحد من أصدقائي، أو صديق لأحد أصدقائي.

فهز السيد برادلي رأسه وقال: إن أكثر عملائي يأتونني بهذه الطريقة لأن بعض المشكلات ذات حساسية كبيرة، وأعتقد أنك تعرف مهنتي.

ولم ينتظر الردّ فأفصح لي عن مهنته قائلاً: إنني أهتم بالجياد، فهل هذا يهمّك؟

فأجبت دون أن أعرّض نفسي للظنون: إنني لا أشترك في السباق، ولكن يوجد شيء آخر غير السباق، كالصيد وركوب الخيل مثلاً. إنني مهتم بالناحية الرياضية، أعني الرهان.

فصمت لحظة ثم قال دون اكتراث: هل تفكر في جواد معيّن؟

- إننا سنكون حمقى فعلاً.

- آه، حسناً جداً، عظيم، ولكن لا داعي لمثل هذا الانفعال؛ إذ لا يوجد أي سبب...

فقاطعته بغلظة قائلاً: هذا رأيك أنت.

فقال السيد برادلي بصوت أكثر رقة: أنا أدرك شعورك جيداً،

ولكنني أؤكد لك أنه لا يوجد ما يبرر انزعاجك. أنا محامٍ، ولكن اسمي مشطوب من سجلّ المحامين، وإلا ما كنت لتجدَني هنا. لكنني أعرف القانون، فلا يخامرك الشك من هذه الناحية، وكل ما أُوصي به إنما هو في حدود القانون طبعاً، فكل ما أفعله يدخل في نطاق المراهنات القانونية، ويمكنك أن تراهنني على ما تشاء، فمثلاً يمكنك مراهنتي على أن الدنيا سوف تمطر غداً أو أن الروس سوف يرسلون رجلاً إلى القمر أو أن زوجتك ستنجب توأماً، كما يمكنك أن تراهنني على أن فلاناً سيموت قبل عيد الميلاد أو أن السيدة «س» ستعيش حتى مئة سنة، وأنت تستند في ذلك على غريزتك أو بصيرتك. إن الأمر بسيط كما ترى.

أحسست وأنا أستمع إلى كلماته وكأنني أستمع إلى طبيب يحاول إدخال الطمأنينة إلى قلبي قبل إجراء عملية جراحية، فقلت بتؤدة: أنا لا أفهم أمر هذا الحصان الأشهب حقاً.

- وهذا يثير جزعك. نعم، إن هذا يزعج عدداً كبيراً من الناس. صراحةً أنا نفسي لا أفهم، ولكن النتائج مذهلة.

- ألا يمكنك أن تذكر لي المزيد؟

وكنت أقوم بدوري كما يجب، فكنت أبدو حريصاً وبي رغبة وخوف، وكان واضحاً أن هذه هي الطريقة التي اعتاد السيد برادلي عليها مع غيري من الناس، فقال: قبل كل شيء، هل تعرف المكان؟

ففكرت سريعاً ورأيت أنه من الحماقة أن أكذب ولهذا أجبت قائلاً: لقد... حسناً، لقد ذهبت إلى هناك مع أصدقاء اصطحبوني معهم.

– إنه مقهى قديم ظريف أُدخلت عليه تعديلات كثيرة. إذن فقد تعرّفت بها، أعني صديقتي الآنسة تيرزا غراي، أليس كذلك؟

– بلى، تعرّفت بها. إنها امرأة مدهشة.

– أليس كذلك؟ إنها مدهشة حقاً، مذهلة، موهوبة!

– ولكن أليست الأشياء التي ترويها مستحيلة الوقوع؟

– بلى، إن الأشياء التي تزعم أن في استطاعتها أن تقوم بها مستحيلة الوقوع فعلاً، ولو استطلعنا رأي أي شخص لقال هذا القول، وفي المحكمة مثلاً...

وتفحّصتني عيناه السوداوان كأنهما تسبران أغواري ثم استطرد قائلاً: في المحكمة مثلاً يبدو هذا الأمر مضحكاً لأن تلك المرأة إذا تقدّمت إلى المحكمة وألقت على نفسها تهمة قتل شخص ما وهي على مسافة بعيدة منه بعدّة أميال، بقوة إرادتها أو بأية وسيلة أخرى يحلو لها أن تذكرها، فلن يعيرها القاضي والمحلّفون أي اهتمام حتى ولو كانت صادقة. على كل حال هذا أمر لا يصدّقه قوم عقلاء مثلي ومثلك، وفي هذه الحالة لا يدينها القانون لأن جريمة القتل التي تقع بهذه الوسيلة ليست جريمة في نظر القانون، فهذا أمر سخيف. وهنا جمال الموضوع إذا أمعنت الفكر.

لقد كان السيد برادلي يحاول إدخال الطمأنينة إلى قلبي لأن جريمة القتل بواسطة قوى السحر الخفيّة لا تُعتبَر جريمة في نظر القانون الإنكليزي، فأنا إذا استأجرت وغداً كي يرتكب جريمة قتل بمدية أو مسدّس أو أية أداة أخرى فإنني أكون شريكاً له في ارتكابها في نظر القانون، أما إذا اشتركت مع تيرزا غراي كي تستخدم سحرها الأسود فإن هذا السحر الأسود غير مقبول أو غير

معترَف به، وكان هذا هو جمال الموضوع في نظر السيد برادلي. ثم صِحت قائلاً بدهشة: ولكن هذا محض خيال. لا يمكن أن أصدّق هذا، هذا محال!

– الحق أنني أشاركك رأيك، ولكن تيرزا غراي تتمتع بقوى سحرية خارقة لأنها اسكتلندية، والاسكتلنديون معروفون بهذه المقدرة. إن السحر موجود طبعاً، أما ما أعتقده أو تعتقده أنت فهذا شيء آخر.

ثم انحنى إلى الأمام وأخذ يهز إصبعه أمام عيني وهو يقول: إن تيرزا غراي تتنبأ بالموت قبل وقوعه، وهذه موهبة، وهي تملك هذه الموهبة.

ونظر إليّ ملياً ثم استطرد قائلاً: لنفترض أن شخصاً، وليكُن هذا الشخص أنت أو أي رجل آخر، يريد أن يعرف متى تموت العمة إليزا، فأنت إذا عرفت متى تموت العمة إليزا تستطيع أن تدبّر أمورك، فمثلاً سوف تتأكد من أن ثروة كبيرة ستهبط عليك في نوفمبر القادم، كما أنه في مقدورك أن تقدِم على ما تريد من مشروعات. إن الموت مغامرة حقاً، ومن الجائز أن تبقى العمة إليزا على قيد الحياة عشر سنوات أخرى بمعونة الأطبّاء، وقد يعجبك هذا حقاً لأنك تحبّها كثيراً، ولكن الفضول يدفعك إلى أن تعلم متى يمكن أن تموت. وأنا رجل مقامر كما قلت لك، أراهن على كل شيء، وأنت تأتيني لهذا الغرض. طبعاً أنت لن تراهن على موت السيدة العجوز لأن هذا لا يعجبك، ولكننا سنعرض الأمر بصورة أخرى، سوف تراهنني بأي مبلغ على أن العمة إليزا ستكون في أتمّ صحّة في عيد الميلاد المقبل، أما أنا فسأراهنك على عكس ذلك.

وأخذت العينان الضيقتان تسبران غوري من جديد قبل أن يستطرد قائلاً: ليس في هذا ما نؤاخَذ عليه قانوناً. إنه أمر بسيط يمكننا أن نتجادل فيه، فأنا أزعم أن العمة إليزا ستموت في حين تصرّ أنت على العكس، ثم نكتب بيننا عقداً يوقّع عليه كل منا وسأحدّد لك فيه تاريخاً، وبعد هذا التاريخ أو قبله بخمسة عشر يوماً ستموت العمة إليزا، فإذا ماتت كسبت أنا الرهان، أما إذا لم تمُت فأنا الذي أدفع لك.

فنظرت إليه وأنا أحاول أن أشعر بشعور الرجل الذي يشتاق إلى التخلّص من امرأة ثرية ثم قلت لنفسي: لا، من الأفضل أن أرسم خطّة أزعم فيها أن رجلاً يهدّدني بإفشاء سرّ أحرص على إخفائه ويبتزّ منّي أموالاً طائلة ولم أعُد أستطيع احتمال ذلك مدة أطول وأريد أن يموت، وليست لدي الشجاعة في أن أقتله بنفسي، ولكنني مستعدّ أن أدفع أي شيء في سبيل التخلّص منه. نعم، أي شيء، فقلت بصوت أجش: وما هي شروطك؟

فغيّر السيد برادلي لهجته وقال بمرح وابتهاج: ها قد وصلنا إلى بيت القصيد أخيراً، أو كنا قد وصلنا إليه منذ مدّة لأنك سألتني: «كم؟». لقد أثرت دهشتي؛ فلم يسبق أن أتاني أحد بمثل هذه الطريقة.

- ما هي شروطك؟

- هذا يتوقف على عناصر متعددة ومختلفة، فإن الثروة التي يملكها الشخص المرغوب التخلص منه تلعب دوراً كبيراً، والأمر يختلف إذا أراد المرء التخلّص من زوجة مزعجة أو من رجل يزاول مهنة التهديد. أنا لا أراهن العملاء إلا في حالة كتلك التي ذكرتها لك في البداية، حيث يمكن للعميل الحصول على ثروة قريب

من أقربائه، أما الشروط فيمكننا الاتفاق عليها فيما بيننا لأن لكل منا مصلحة في ذلك. الثمن العادي هو أنني أراهن بخمسمئة جنيه مقابل كل جنيه.

- خمسمئة جنيه مقابل كل جنيه؟! هذا مبلغ جسيم.

- لا تنسَ أنني أقوم بمغامرة جسيمة أنا الآخر، فأنت ما كنت لتقصدني لو أن العمة إليزا على حافة القبر. إن التنبؤ بالموت في مدى أسبوعين رهان غير عادي، وإذا أنا راهنتك على خمسمئة جنيه مقابل كل جنيه فإن هذا ليس بمبلغ كبير.

- وإذا خسرت أنت الرهان، فماذا سيحدث؟

فهزّ برادلي كتفيه وقال: سيكون هذا أمراً مؤسفاً، ومهما يكُن فإنني سأدفع في هذه الحالة.

- وإذا خسرت أنا ولم أدفع فماذا سيحدث؟

فأطبق برادلي عينيه الضيقتين وقال برقّة: إنني لا أنصحك بهذا، لا أنصحك بهذا حقاً.

فسَرَت القشعريرة في بدني، ثم نهضت وأنا أقول: يجب... يجب أن أفكر.

فاستعاد برادلي مرحه على الفور وقال: على رِسلك إذن، لا يجب أن تتعجّل، وإذا عزمت فيمكنك أن تعود لنتدارس الأمر معاً. لا تتعجّل.

* * *

الفصل الثالث عشر
رواية مارك إيستربروك

قمت بالخطوات اللازمة لاستجواب السيدة توكرتون بنفور كبير لأنني كنت أعتقد أن هذا العمل ليس من الحكمة في شيء، على عكس رأي جنجر، كما كنت أشعر بأنني غير كفء لهذه المهمة وأشعر بأنني لن أجيد تمثيل دوري. وقد زوّدتني جنجر بنصحائها قبل ذلك هاتفياً بحماسة شديدة، وكانت تعرف كيف تسيّر الأمور كما تريد، فقالت: سيكون الأمر سهلاً؛ فالبيت من تصميم ناش، ولكنه تصميم مخالف لتصميمه العادي المعروف عنه، وهو تصميم قوطي لم يسبق أن فكر فيه أحد قبله.

- ولماذا أريد أن أراها؟

- لأنك تريد كتابة مقال أو كتاب عن فن المعمار القوطي، أو شيئاً من هذا القبيل.

قلت: هذا أمر سخيف حقاً.

فردّت جنجر بقوة قائلة: سخيف؟ إن أقل الناس تجرِبة وأبعدهم معرفة يمكن أن يكتبوا مقالات عن فن البناء والمعمار إذا أرادوا، فأنا مثلاً يمكنني أن أكتب فصولاً شيقة في هذا الموضوع.

- ولهذا أعتقد أنه يمكنك القيام بهذه المهمة أفضل منّي.

- أنت مخطئ لأن السيدة توكرتون قد تبحث عن اسمك في الدليل، أما أنا فلن تجد اسمي فيه.

فاعترفت بالهزيمة ولكنني لم أقتنع. وكنت قد أسرعت إلى جنجر على أثر مقابلتي للسيد برادلي وحديثي المذهل معه، ثم أخذنا نتشاور في الأمر. والحق أنه لم تتملّكها الدهشة بقدر ما تملّكتني أنا، ثم قالت بارتياح ظاهر: لقد أصبحنا متأكّدين الآن من أنه توجد عصابة للتخلّص من بعض الناس.

- بوسائل سحرية؟

- إنك تتشبّث بأفكارك وتؤثّر عليك همسات سيبيل وأحجيتها والشعوذة التي تحيط بها نفسها، ولو بدا لك أن السيد برادلي يعمل بالسحر هو الآخر لأصبحت أكثر ظناً وتشككاً، ولكن الآن بعدما وضح لنا أنه من المجرمين العاديين فإن هذا يغيّر كل شيء، وبناء على ذلك يمكننا القول بأن هؤلاء الفتيات الثلاث العوانس قد اهتدين إلى شيء عرفن كيف يحسنّ استغلاله.

- إذا كنت مقتنعة هكذا فلماذا أمضي إلى السيدة توكرتون؟

فأجابت قائلة: زيادة في التأكّد، فنحن نعلم أن تيرزا غراي تقول إن في مقدورها أن تفعل ذلك، وقد علمنا الآن كيف تتم تسوية الناحية المالية، وعرفنا الشيء القليل عن ثلاثة من القتلى، ولكننا نريد أن نعرف المزيد فيما يتعلق بالناحية العملية.

- وإذا اتضح لنا أن السيدة توكرتون لم تكُن من عملاء الحصان الأشهب فماذا سنفعل؟

- عندئذ سوف نوجّه اهتمامنا إلى جهات أخرى.

وهكذا وجدت نفسي أمام قصر كارادايي، وهو قصر بسيط متواضع يعطينا فكرة عن فن ناش، ولكنني لم أكُن أعرف الكثير عن هذا الأخير، ولهذا طرقت الباب وأنا أبتهل إلى الله أن تجري الأمور على ما يرام.

فتح لي خادم رثّ الهيئة أفسح الطريق وهو يقول: السيد إيستربروك؟ إن السيدة توكرتون في انتظارك.

وتقدّمني إلى قاعة استقبال كبيرة مفروشة بعناية ظاهرة، ولكنها أحدثت في نفسي أسوأ الأثر؛ فقد كان كل ما فيها غالياً وثميناً إلا أنه كان مجافياً للذوق السليم، وكانت تزخر باللوحات المختلفة ولكنها تفتقر إلى الجمال والفن فيما عدا لوحتين كان يمكن إدراجهما، بشيء من التسامح، مع اللوحات الفنية التي قد تُقدّر بثمن ما، كما كانت توجد ستائر حريرية صفراء كثيرة.

وأقبلت السيدة توكرتون فأنقذتني من نظراتي الفاحصة، ولا أدري ماذا كنت أتوقع، ولكنني دهشت دهشة كبيرة؛ فقد كانت السيدة توكرتون امرأة عادية من العامة. كانت متوسطة السن لا تتمتع بقدر عالٍ من الجمال، وعلى الرغم من أن طبقة الأحمر التي تغطي شفتيها كثيفة إلا أنهما رقيقتين، وكانت عيناها زرقاوين باهتتين تُشعران من يراهما أن صاحبتهما معتادة على المساومة وبخس الحقوق وأنها من تلك النسوة اللاتي يمنحن حلواناً بخساً ويتمنّين لو استطعن استرداده في نفس الوقت. وكان واضحاً أن زيارتي لها قد سرّتها كل السرور لأنها خاطبتني قائلة: يسرّني أن أراك يا سيد إيستربروك، كما يسرّني أن تهتمّ ببيتي. أنا أعرف أنه من تصميم ناش، ولكن لم يخطر لي أن أحداً قد يهتمّ به!

– الحق يا سيدة توكرتون أنه ليس من التصميمات العادية التي

اشتُهر بها ناش، وهذا هو سبب اهتمامي به و...

فأنقذتني من ارتباكي قائلة: أنا أجهل من الدابة فيما يتعلق بفن البناء والمعمار، وأرجو أن لا يضايقك ذلك.

فأكّدت لها أنني لا أشعر بأي ضيق، وعندئذ سألتني إن كنت أفضّل تناول الشاي قبل زيارتي للبيت أم بعدها، ولم أكُن قد واجهت هذا الاحتمال لأنني قد تواعدت معها على اللقاء في منتصف الساعة الرابعة، ولكنني أجبتها بأنني أؤثر زيارة البيت.

ثم طافت بي بأرجاء البيت وهي لا تكفّ عن الثرثرة، ولكن ثرثرتها كانت عوناً كبيراً لي، وكان مما قالت إنه من حسن حظي أنني فكرت في زيارة البيت في ذلك الوقت بالذات لأنها تنوي عرضه للبيع، ثم استطردت قائلة: إنه بيت كبير بالنسبة إليّ، خصوصاً بعدما مات زوجي، ويسرّني أنك أتيت لزيارته قبل أن أبيعه وأغادر. إنني أعتقد أن البيت يجب أن يقيم فيه من يقدّره حقاً، أليس كذلك يا سيد إيستربروك؟

وكنت أفضّل أن أرى البيت خالياً من أي ساكن ومن أي مفروشات، ولكنني لم أفصح عن رأيي لأن هذا شيء لا يقال. ثم سألت مضيفتي إن كانت تنوي البقاء في البلاد فأجابت قائلة: الحق أنني لا أعرف، أريد أن أرحل إلى الخارج وأن أتنقل في مختلف البلاد بعضاً من الوقت لأنني أمقت هذا الجوّ المقبض، أريد أن أقضي الشتاء في مصر. لقد قضيت فيها سنتين قبل ذلك، وإنها بلد عجيب رائع. ولكن ما أشدّ غبائي! لا ريب أنك تعرفها جيداً.

ولم أكُن أعرف شيئاً عن مصر، وقد اعترفت لها بذلك، ولكنها قالت برقّة: لا أصدّق ذلك. ها هي غرفة الطعام؛ إنها مصمَّمة بطريقة خاصة ولها ثماني زوايا. أليست رائعة؟

وبعدما فرغت من زيارة البيت عدنا إلى قاعة الاستقبال، ودّقت السيدة توكرتون الجرس لإعداد الشاي فجاء به الخادم ذو الهيئة الرثة، وكان إناء الشاي مصنوعاً من الفضة الخالصة ولكنه كان في حاجة شديدة إلى التنظيف. وما إن انصرف الخادم حتى تنهّدت السيدة توكرتون وقالت: إن مشكلة الخدم عويصة، وهم قوم شديدو المراس. عندما مات زوجي غادر الخادم الذي كان يقوم على خدمتنا هو وزوجته بحجة أنهما يريدان اعتزال العمل، وكان قد مضى عليهما في خدمة زوجي عشرون عاماً، ولكنني سمعت بعد ذلك أنهما التحقا بالخدمة في بيت آخر. إن المرتبات التي نمنحها لهم باهظة، فضلاً عن وجبات الطعام التي يتناولونها والثياب التي يغسلونها على حساب صاحب البيت.

فقلت وأنا أفكر: هذا صحيح.

وكانت عيناها الباهتتان وفمها الرفيع خير دليل على البخل والتقتير. ثم عرفت منها أنها تزوجت توماس توكرتون بعد مرور خمس سنوات على موت زوجته، وأنها تصغره بكثير، وأنها التقت به في فندق على شاطئ البحر، وأنها كانت قد اشتركت معه في لعب البريدج. وقد أفلتت منها هذه الحقيقة دون وعي منها، كما قالت لي إنه كان لزوجها ابنة في إحدى المدارس الداخلية، ثم قالت بحزن: مسكين توماس، كان وحيداً؛ فقد ماتت زوجته الأولى منذ سنوات طويلة وكان يفتقدها ويعاني من الوحدة.

واستمرّت السيدة توكرتون تتحدث عن نفسها وتصف نفسها بأنها امرأة ذات قلب حنون أخذتها الشفقة بكهل وحيد مريض فأخذت تُعنى به بإخلاص، ثم استطردت قائلة: وفي الأيام الأخيرة التي ساءت فيها حالته لم أستطع الاحتفاظ بأي صديق طبعاً.

فسألت نفسي: هل كان توماس توكرتون يضيق ذرعاً بزوجته وأصدقائها؟

وكان هذا يفسّر معنى الوصية التي طلبت جنجر صورة منها من مكتب توثيق العقود. لقد كانت توجد بعض الهبات والمنح للخدم، ثم معاش لزوجته، وهو معاش مناسب ولكنه غير سخيّ، وهو عبارة عن جزء من ممتلكاته تستمتع به طَوال حياتها، أما باقي التركة وهو يربو على مئة ألف جنيه فيؤول إلى ابنته تومازينا ويسلّم إليها بالتمام يوم بلوغها الحادية والعشرين من عمرها أو يوم زواجها، أما إذا حدث وماتت قبل ذلك فإن الثروة كلها تكون من نصيب زوجة أبيها. والظاهر أن الرجل لم يكُن له أقرباء آخرون.

لقد كانت الثروة كبيرة، وكان واضحاً لكل ذي عينين أن السيدة توكرتون تحبّ المال. لقد كانت تعاني الفقر والضنك قبل أن تتزوّج ذلك الأرمل الثري، وقد يكون ذلك هو الذي جعلها توافق على أن تعيش مع كهل مريض، ثم أخذت تتمنّى اليوم الذي تغدو فيه حرّة وهي ما تزال شابة لتستمتع بالثروة التي كانت تتوقع أن تؤول إليها، ولكن عندما مات الرجل وفُضّت وصيته خاب أملها وهي ترى أن الثروة قد أصبحت من نصيب ابنة زوجها، ولم يكُن يوجد أي شك في أن هذه الأخيرة كانت تكرهها، وكان مقدّراً أن تكون تلك الابنة من الأثرياء لولا...

هذا يكفي. هل يصدّق أحد أن هذه المرأة ذات الأناقة المجافية للذوق السليم، والتي عانت من الفقر والفاقة ما عانت، كانت من البرود والجرأة بحيث دبّرت موت فتاة في ريعان الصبا بمساعدة الحصان الأشهب؟ لا، لا أستطيع أن أصدّق هذا! ومع ذلك كان لا بدّ أن أقوم بالدور المرسوم لي، فقلت بشيء من العنف تقريباً:

يخيّل إليّ أنني التقيت بابنتك، أعني بابنة زوجك.

فنظرت إليّ بشيء من الذهول برهة ولكن لم يكُن في عينيها ما يدلّ على أي اهتمام، ثم قالت: تومازينا؟ حقاً؟

- نعم، لقد التقيت بها في شلسي.

- شلسي؟ نعم، إن هذا لا يدهشني.

ثم تنهّدت واستطردت قائلة: يا لفتيات اليوم! إن من العسير ضبط سلوكهن. لقد كانت أفعال تومازينا تثير حزن أبيها، ولكن لم يكُن في مقدوري أن أفعل شيئاً لأنها لم تكُن تصغي إليّ قطّ. لقد تنازلت عن كثير من حقوقي وحاولت عمل أي شيء لإرضائها، ولكن محاولاتي كلها باءت بالفشل. ولم يكُن توم ليسمح لها أن تعاملني بوقاحة قطّ، ولكنها جعلت حياتي جحيماً لا يطاق، وقد شعرت براحة كبيرة عندما أصرّت على مغادرة البيت، ولكنني أدركت مدى وقع الأمر على توم. لقد كانت تخالط قوماً غريبي الطباع، ولعلك لا تعلم أنها ماتت منذ شهر بوَرم في المخّ فجأة، وهو مرض شائع عند الشباب هذه الأيام. هذا أمر مؤسف حقاً!

فقلت وأنا أنهض: ولكنني كنت أعلم أنها ماتت. أشكرك يا سيدتي لأنك سمحت لي بزيارة البيت.

فمدّت يدها إليّ، ومشيت بضع خطوات نحو الباب ثم التفتّ إليها فجأة وقلت: بالمناسبة، أعتقد أنك لا تعرفين الحصان الأشهب، أليس كذلك؟

لم يكُن لدي شك في ردّ الفعل الذي أحدثه سؤالي، فقد اتسعت عيناها رعباً وفقدَ وجهها لونه وقالت بصوت حادّ: الحصان الأشهب؟ ماذا تعني؟ أنا لا أعرف أي حصان أشهب!

فتظاهرت بالدهشة وقلت: آه! هل تعتقدين أنني أخطأت؟ إنه مقهى قديم ذو أهمية كبيرة في ماتش ديبنغ، وقد زرته منذ بضعة أيام. لقد تغيّر بشكل غريب، وأنا متأكد من أنني سمعت اسمك هناك، ولعل ابنة زوجك ذهبت لزيارتها قبل موتها، أو لعل أحداً آخر يحمل اسمك. لقد اكتسب المكان شهرة كبيرة.

ثم خرجت وأنا أشعر بسرور كبير؛ ففي إحدى المرايا التي يزخر بها الدهليز رأيت صورة السيدة توكرتون وهي تنظر إليّ بعينيها وقد مُلئتا رعباً وخوفاً، وكانت صورة لما سوف تكون عليه بعد بضع سنوات، ولكنها صورة لا تسرّ الناظرين.

* * *

الفصل الرابع عشر

(برواية مارك إيستربروك)

قالت جنجر: لقد تأكدنا الآن.

- بل كنا متأكّدين قبل ذلك.

- أجل، ولكننا قطعنا الشكّ باليقين.

ثم لزمنا الصمت دقيقة أو دقيقتين، وأخذت أتخيّل صورة السيدة توكرتون وهي تسرع إلى برمنغهام لمقابلة السيد برادلي، وتخيّلت انفعال المرأة وبساطة الرجل وبشاشته المصطنعة وهو يشدّد الضغط على كلماته مؤكّداً انعدام الخطر، ولا ريب أنه ضغط على هذه النقطة بالذات في حديثه مع السيدة توكرتون. كما تخيلتها وهي تغادر برادلي دون أن تعرّض نفسها للظنون تاركة الفكرة تتأرجح وتزداد رسوخاً في ذهنها، وربما ذهبت بعد ذلك لزيارة ابنة زوجها، أو ربما جاءتها هذه الأخيرة في عطلة نهاية الأسبوع وذكرت لها أنها تنوي الزواج. وطَوال تلك المدة كانت فكرة الحصول على المال تلحّ عليها، ولا أعني بالمال ذلك المعاش الذي كتبه لها زوجها الراحل، وإنما كل الثروة التي خلّفها بعد موته والتي كانت تتمنّى الحصول عليها، والتي قُدّر أن تؤول إلى تلك الفتاة المنحلّة المجرّدة من الأخلاق الحميدة والتي تذهب

إلى الحانات في شلسي مرتدية ثياباً ضيّقة لا تليق بها ولا بوسطها الاجتماعي مصطحبة شاباً خليعاً. لا ريب أن السيدة توكرتون قامت بزيارة أخرى لبرمنغهام وأنها تناقشت مع برادلي في الشروط، ولا ريب أن هذا الأخير قد ناله منها تعب شديد ثم تمّ التوقيع على العقد، ولكن ما الذي حدث بعد ذلك؟

لم يسعفني الخيال لمعرفة ما حدث، ثم انتبهت من تأمّلاتي لأرى جنجر تتفرس فيّ وهي تقول: أراك قد تتبعت تلك المرأة إلى برمنغهام وأعدت بناء كل ما حدث.

- هذا صحيح، ولكن كيف عرفت أنني كنت أفكر في السيدة توكرتون؟

- ذلك لأنني بدأت أعرف كيف تفكر وكيف تتصرف.

- لقد أعدت بناء كل ما حدث كما تقولين، ولكنني لا أدري ماذا حدث بعد لقائها مع السيدة برادلي.

- سوف نعرف ما يدور في الحصان الأشهب عاجلاً أو آجلاً.

- وكيف ذلك؟

- لا أدري، ولن يكون ذلك بالعمل الهيّن؛ إذ لم يتكلم أي شخص من الذين تعاملوا أو يتعاملون مع الحصان الأشهب، ومع ذلك فهم وحدهم الذين يعرفون ما يقع. إنني أتساءل...

فقلت مقترحاً: ألا يمكن أن نلجأ إلى الشرطة؟

- نستطيع ذلك طبعاً، ولكن بعد أن نملك الدليل أو ما يكفي لعمل شيء.

فهززت رأسي بشك كبير وقلت: دليل؟ وهل رغبة الموت

الكامنة في أعماق كل منا تُعدّ دليلاً كافياً؟ إن المحكمة سوف تعتبر هذا الكلام هذراً ولن تأخذه مأخذ الجدّ. نحن لا نعرف ماذا يفعلون على وجه التحديد.

- إذن يجب أن نعرف ذلك، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ يجب أن نرى وأن نسمع بأعيننا وآذاننا، ولكن لا يوجد أي مكان يمكن الاختفاء فيه في تلك الغرفة الفسيحة، وأعتقد أن العملية -هذا إذا كانت توجد عملية- تدور في تلك الغرفة بالذات.

ثم اعتدلت جنجر وهزّت رأسها كجرو صغير قائلة: لا يوجد سوى طريقة واحدة، وهي أن تكون أنت نفسك عميلاً للحصان الأشهب.

فنظرت إليها بفضول وهتفت قائلاً: عميلاً للحصان الأشهب؟

- نعم، أنا أو أنت. لا يهمّ الآن مَن يكون، وإنما المهم أن واحداً منا يريد أن يتخلّص من الآخر، واحد منا يجب أن يذهب كي يرى برادلي ويتفاهم معه.

فقلت بحدة: أنا لا أوافق على هذا الأمر.

- لماذا؟

- لأنه يفتح آفاقاً جديدة من الخطر.

- بالنسبة إلينا؟

- ربما، ولكنني كنت أفكر في أمر الضحية حقاً. يجب أن توجد ضحية حقيقية وأن يكون لها اسم حقيقي؛ إذ لا يمكننا أن نبتدع شخصاً لا وجود له لأنهم سوف يتحرّون عن كل صغيرة وكبيرة قبل الإقدام على أية خطوة.

ففكرت جنجر لحظة ثم قالت: أجل، يجب أن تكون الضحية موجودة فعلاً وأن يكون لها عنوان معروف.

- وهذا هو ما لا يروقني.

- كما أنه يجب أن يوجد سبب وجيه للتخلّص منها.

ولزمنا الصمت برهة ونحن نفكر في الموقف، ثم لم ألبث أن قلت بتؤدة: وقبل كل شيء يجب أن يوافق الشخص المطلوب، وهذا صعب جداً.

فقالت جنجر وهي لا تزال تفكّر: يجب أن لا ندَع شيئاً للظروف، وكما قلت في ذلك اليوم، إن نقطة الضعف في هذه المسألة هي أننا نجد أنفسنا في طريق مسدود. إن عليهم المضيّ في هذا العمل سرّاً، ولكن ليس بما يكفي من السرّية لأنه لا بدّ لهم من تجديد العملاء.

- إن ما يثير دهشتي هو أن الشرطة لم يسمعوا بخبرهم حتى اليوم!

- ولهذا السبب أعتقد أننا أمام مجموعة من الهواة ليس فيها مجرم واحد محترف. لنفترض أن واحداً منا يريد التخلص من شخص ما، فعلى مَن يقع الاختيار؟ يوجد عمي الكهل مرفين، وهو رجل ثري ولا وريث له غيري أنا وابن عم لي يعيش في أستراليا. وعمّي هذا قد تجاوز السبعين من عمره ولا يكاد يدري من أمر نفسه شيئاً، وقد يكون من الأفضل أن أنتظر موته بهدوء لأنني لست في حاجة ماسة إلى المال، ثم إنني أحبّه جداً ولا يطاوعني قلبي على أن أحرمه من الحياة. لننظر في أمرك الآن، هل لك قريب يمكن أن يترك لك ثروة ما؟

فهززت رأسي وأجبت قائلاً: لا.

- هذا أمر مؤسف. يمكننا الآن أن نفترض احتمالاً آخر، وهو أن رجلاً يهدّدك بإفشاء سرّ ما ويبتزّ أموالك، ولكن هذا أمر متعذّر تدبيره؛ فأنت لست رجلاً عظيم الشأن ولست وزيراً يخشى افتضاح أمره. ألا توجد طريقة أخرى؟ مثل تعدّد الزوجات، ولكنك لست متزوّجاً. لقد كان في مقدورنا أن ندبّر قصة صغيرة لو أنك كنت متزوّجاً.

ولا بدّ أن وجهي قد نمّ عنّي لأن ردّ الفعل عند جنجر كان قوياً. ومرّت لحظة قبل أن تقول: أنا آسفة، يبدو أنني فتحت جرحاً لم يندمل بعد.

فقلت: لا، إنه جرح لا يؤلم؛ فقد مضى وقت طويل على ذلك، ولا أظن أنه يوجد مَن يعرف عن زواجي شيئاً.

- هل كنت متزوّجاً حقاً؟

- نعم، وكنت لا أزال طالباً، وقد احتفظنا بزواجنا سرّاً لأنه لم تكُن... أعني أن عائلتي لم تكُن لتوافق، كما أنني لم أكُن قد بلغت سنّ الرشد بعد، وقد كذب كل منا بخصوص سنّه.

وبعد ذلك لزمت الصمت مدة طويلة استعدت فيها الماضي ثم قلت بتؤدة: على كل حال ما كان لهذا الزواج أن يفلح وأنا على يقين من ذلك الآن. لقد كانت جميلة وكانت تعرف كيف تكون ظريفة إذا أرادت، ولكن...

- ماذا حدث؟

- كنا نقضي إجازة في إيطاليا، ثم وقعت حادثة تصادم بين سيارتين لقيَت فيها مصرعها.

- وماذا عنك؟

- لم أكُن معها في السيارة؛ فقد كانت مع صديق.

فألقت جنجر نظرة سريعة إليّ، وأظنها أدركت مدى الصدمة التي شعرت بها وقتئذ عندما اكتشفت أن الفتاة التي تزوّجتها لم تكُن من ذلك النوع الذي يظل على وفائه بعد الزواج. ثم عادت جنجر إلى الناحية العملية فقالت: هل تزوّجتها في إنكلترا؟

- نعم، في مكتب تسجيل بترو بورنغ، ولكنها ماتت في إيطاليا.

- وهل سجّلت وفاتها في إنكلترا؟

- لا.

- وماذا تريد أكثر من هذا؟ هذا هو مرادنا. لا يوجد أسهل من هذا، فأنت تحبّ فتاة وتريد أن تتزوّجها، ولكن زوجتك ظهرت فجأة وهي ترفض الطلاق وتهدّد بالذهاب إلى حبيبتك العزيزة كي تروي لها كل شيء.

- ومَن هي حبيبتي العزيزة؟ أنت؟

فبدا على جنجر أن كلماتي صدمتها لأنها أسرعت تقول: بالطبع لا؛ فأنا لست من هذا النوع، ولكنها هي خير من يصلح لهذه المهمة، أعني تلك السمراء التي تذهب معها إلى كل مكان، هرميا روكليف.

- ومن الذي أخبرك بأمرها؟

- بوبي طبعاً. إنها ثرية، أليس كذلك؟

- بلى، ثرية ولكن...

- لا بأس، لا بأس. إنني لا أزعم أنك تريد أن تتزوّجها من أجل مالها، فهذا لا يتفق مع ما أعرفه عنك، ولكن نفساً خبيثة كنفس برادلي ستجد ذلك أمراً طبيعياً، ولذا علينا أن ندرس الموقف جيداً. يجب أن تستعدّ كي تطلب يد هرميا في حين تظهر الزوجة غير المرغوب فيها فجأة وترفض أن تمنحك الطلاق وتهدّدك بالانتقام، وأنت قد سمعت عن الحصان الأشهب. وإنني أراهنك بما تريد على أن تيرزا وتلك الغبية قد خطر لهما أنك تمهّد للموضوع بزيارتك لهما، ولهذا كشفت تيرزا بضاعتها لك.

فقلت: هذا جائز.

ثم جاءت زيارتك لبرادلي عقب ذلك فأيدت ظنونهما. إنهم يعتبرونك الآن عميلاً.

- ولكنهم سيقومون بالتحري الدقيق.

- طبعاً.

- ليس من السهل ابتداع زوجة وهمية تأتي من الماضي فجأة، فلا بدّ لهم من التفصيلات، فمثلاً أين تقيم؟ ومن هي؟ وإذا أنا حاولت أن أتدبّر الأمر...

فقاطعتني قائلة: لا حاجة بك إلى تدبير كل شيء، فلا بدّ لك من زوجة، ولا بدّ لهذه الزوجة أن تكون موجودة فعلاً. تمالك نفسك الآن، فأنا زوجتك.

فنظرت إليها مدهوشاً وقد اتسعت عيناي، وعجبت كيف لم تضحك لمنظري عندئذ. ولم أكُن قد تمالكت نفسي تماماً عندما استطردت قائلة: لا داعي لهذه الدهشة؛ فليس هذا عرضاً للزواج بك.

وأخيراً أسعفني النطق فقلت: ولكنك لا تفهمين ما تقولين.

- بل أفهم ما أقول تماماً. إن ما أعرضه عليك ممكن التنفيذ، وهو اقتراح له ميزة خاصة، وهي أننا لا نعرّض بريئاً لخطر مُحتمَل.

- ولكنك تعرّضين حياتك أنت للخطر.

- هذا شأني أنا، وسوف نفلح، فقد فكّرت في الأمر من جميع نواحيه. سوف أصِل إلى سكن مفروش ومعي حقيبة أو حقيبتان عليهما بطاقات أجنبية، ثم أستأجر الشقة باسم السيدة إيستربروك، فمَن ذا الذي يشك في الأمر عندئذ ويدّعي أنني لست السيدة إيستربروك؟

- كل الذين يعرفونك.

- لن يراني أحد منهم، وسوف أحصل على إجازة وأصبغ شعري. بالمناسبة، هل كانت زوجتك سمراء أم شقراء؟

فأجبتها بطريقة طبيعية: سمراء.

- حسناً، إذن سوف أصبغ شعري ثم أقوم بوضع بعض المساحيق بحيث لا يعرفني أحد من أصدقائي، ولن يخطر لأحد أنني لست زوجتك فعلاً؛ فإن أحداً لم يرَها منذ خمسة عشر عاماً، وما دمت مستعداً كي توقّع على أوراق بمبالغ كبيرة فإن أحداً من الحصان الأشهب لن يخطر له أنني لست زوجتك حقاً، ثم إنه ليس لك أية صلة بالشرطة وسوف يتحققون من ذلك، كما سوف يتحققون من أنك قد تزوجت فعلاً وأنك تحبّ هرميا، وبذلك لا أرى داعياً لأن تساورهم الظنون والشكوك.

- أنت لا تعرفين ما قد تتعرضين له من خطر وصعاب.

- خطر؟ أنا لا أريد إلا أن أساعدك في ابتزاز بضع مئات من الجنيهات من ذلك الوغد برادلي.

فنظرت إليها، وفي تلك اللحظة أعجبتني كثيراً بشعرها الأحمر وبُقع النمش التي على وجهها وروحها المغامرة. ولم يطاوعني قلبي أن أدَعها تلقي بنفسها في فم الأسد فقلت: لا أستطيع أن أقبل هذا يا جنجر؛ فقد يقع مكروه.

- هذا شأني وحدي.

- لا، فأنا الذي أقحمتك في هذه المغامرة.

- ربما، ولكن ليس لهذا أهمية، فكلانا مقحَم في هذه المغامرة الآن وعلينا أن نفعل شيئاً. إنني جادة في ذلك يا مارك، ولا أزعم أننا سوف نلهو لأنه لو صح ما نعتقد فإنه سيكون أمراً بغيضاً يجب أن نضع له حداً؛ فهي ليست جريمة قتل تُدبَّر بجرأة وبرود بدافع الحقد والغيرة، كما أنها ليست جريمة قتل تُرتكب من أجل الطمع، ولكننا أمام عصابة منظمة تتخذ عملية القتل تجارة للكسب وتقتل دون أن تحسب أي حساب لشخصية القتيل. لقد عقدت النية ولن أتراجع، وإنني أعرف ما سوف يفعلونه لي، ويجب أن تصدّقني، فإذا كانت تيرزا غراي تعتمد على استغلال رغبة الموت الكامنة في أعماق كل منا كما تزعم فإنني لا أشعر بأية رغبة في أن أموت، كما أنني أتمتع بصحة جيدة ولا أستطيع أن أصدّق أن أُصاب بتصلب الشرايين أو بالتهاب الأعصاب، لا لشيء إلا لأن تيرزا غراي ترميني بسحرها أو لأن سيبيل ستامفورديس تروح في غيبوبة!

- نحن لا نعرف ما قد يقع.

- ولهذا بالذات يجب أن نكتشفه.

فعدت أقول متوسّلاً: أنصتي إليّ، دعينا نتبادل دورَينا، سأكون أنا الشخص الذي يبقى في لندن وتقومين أنت بدور العميلة، ويمكننا أن نلفّق قصة.

ولكن جنجر هزت رأسها بقوة وقالت: لا يا مارك، لن نفلح هكذا وذلك لأسباب كثيرة، أوّلها وأهمّها هو أنهم يعرفونني في الحصان الأشهب ويعرفون أنني غير متزوّجة، وفي مقدورهم أن يعرفوا كل شيء عنّي من رودا، أما أنت ففي موقف مثالي، عميل منفعِل وفضولي وعاجز عن عمل أي شيء. لا، لقد فرغنا من هذا الموضوع.

- هذا لا يعجبني، لا يروقني أن أفكر أن تقيمي بمفردك في مكان ما وباسم آخر غير اسمك في حين لا يوجد من يحرسك. أظن أنه يجب أن نلجأ إلى الشرطة قبل أن نندمج في هذه المغامرة، أعني قبل أن نبدأ أية خطوة.

فقالت جنجر ببطء: يسرّني أن أسمع منك هذا. الحق أنني أظن أن هذا هو ما يجب أن نفعله، ولكن هل تعرف أحداً في اسكتلنديارد؟

فأجبت قائلاً: نعم، المفتش ليغون.

* * *

الفصل الخامس عشر

(برواية مارك إيستربروك)

ما إن رأيت المفتش ليغون حتى أحسست بميل كبير إليه؛ فقد كان يبدو أنه يتمتع بالمقدرة والهدوء، كما بدا لي أنه رجل خيالي وسيتقبل قصّتي على الرغم من تجاوزها للمعقول، وقد خاطبني قائلاً: لقد حدّثني الدكتور كوريغان عن لقائه بك، وهو مهتم كثيراً بهذه القضية منذ البداية؛ فقد كان الأب غورمان معروفاً يقدّره ويحترمه الجميع. أتقول إن لديك معلومات ذات فائدة لنا؟

فذكرت له كيف سمعت عن الحصان الأشهب في مطعم فانتازيا للمرة الأولى وعن زيارتي لرودا والعوانس الثلاث بعد ذلك، ثم نقلت له بقدر ما استطعت حديث تيرزا غراي لي في ذلك اليوم، ثم أطلعته على زيارتي للسيدة توكرتون أولاً وللسيد برادلي بعد ذلك، فبدا عليه الاهتمام وقال: برادلي؟ إذن هو مشترك في هذا العمل.

- هل تعرفه؟

- نحن نعرف كل شيء عنه، وقد تسبب لنا في كثير من المتاعب. إنه رجل ذكي وداهية، ولم نستطع إدانته بأي شيء؛ فهو على معرفة تامة بنصوص القانون ويزاول خداعه ونشاطه في حدوده. لم يخطر لي قطّ أنه مشترك في ارتكاب جرائم القتل!

– والآن بعدما نقلت لك ما دار بيننا من حديث، هل يمكنك التدخل؟

– لا؛ فقد دار الحديث بينكما دون وجود شهود، فلم يكُن يوجد غيرك وفي مقدوره إنكار كل شيء، ومن ناحية أخرى هو على حق لأن في مقدوره المراهنة على أي شيء، وإذا هو تراهن على أن شخصاً سيموت فلا ضير عليه في ذلك، إلا إذا استطعنا أن نجد الدليل على اشتراكه في جريمة القتل التي تهمّنا.

وهز ليغون كتفيه ولزم الصمت بضع لحظات ثم قال: هل التقيت برجل يُدعى فينابلز وأنت في ماتش ديبنغ؟

– نعم، وقد تناولت الغداء معه في ذلك اليوم.

– هل أستطيع أن أسألك عن الأثر الذي أحدثه في نفسك؟

– إنه رجل قدير يتمتع بشخصية عظيمة، ولكنه مشلول لا يستطيع الانتقال من مكان إلى آخر إلا في مقعد متنقّل، ويبدو أن الشلل الذي أصابه قد ضاعف من رغبته في الحياة وفي الاستمتاع بحياته بالذات.

– اذكر لي كل ما تعرفه عنه.

فوصفت له بيته والكنوز الذي يزخر بها ما بين تُحف ومجموعات فنية فقال: مما يؤسف عليه حقاً أنه مشلول.

وأخذ ليغون يرسم بإصبعه السبابة دوائر خيالية فوق المكتب ثم نظر إليّ فجأة وقال: دعنا نوجز معلوماتنا. من المؤكّد أنه توجد عصابة أو منظمة متخصصة في التخلص من الأشخاص غير المرغوب فيهم، عصابة مدبّرة لا تلجأ إلى أي قاتل محترف، كما أنه لا يوجد أي دليل على أن ضحاياها ماتوا بفعل فاعل. وأستطيع

أن أقول لك إنهم كلهم قد ماتوا بطريقة طبيعية بما فيهم الأشخاص الثلاثة الذين ذكرتهم لي، وأن موتهم قد أفاد أناساً آخرين، ولكننا لم نجد قرينة واحدة تدين أي واحد منهم. وتلك العصابة -إذا كانت توجد عصابة حقاً- يديرها شخص يتمتع بذكاء خارق ودهاء كبير، وقد شاءت الأقدار أن تقع بين أيدينا هذه القائمة التي تضمّ عشرة أسماء، والله وحده يعلم كم مات غيرهم من الناس بهذه الطريقة.

ثم هزّ رأسه واستطرد قائلاً بحنق: وقد تفاخرت تلك المرأة، تيرزا غراي، بمقدرتها أمامك. حسناً، إن في مقدورها الاستمرار في هذا العمل دون أن تخشى أي عقاب لأننا إذا ألقينا القبض عليها وقدّمناها للمحاكمة فلا القاضي ولا المحلّفون يملكون ضدّها شيئاً؛ فقد ثبت أنها لم تقترب من ضحاياها ولم ترسل إلى أي واحد منهم طرداً به حلوى مسمّمة مثلاً. إن سلاحها الوحيد الذي تستخدمه هو عقلها الذي تسيطر به على ضحيتها التي تبعد عنها أميالاً. لا، إن الأمر كله سوف يثير الضحك في المحكمة.

فقلت باندفاع: أظن أن أمامنا الفرصة كي نعلم المزيد عن هذا الأمر. لقد أعددت أنا وصديقة لي خطة، وقد تبدو هذه خطة سخيفة بالنسبة إليك ولكن...

وحدثته بما عقدت عليه العزم أنا وجنجر، فأصغى إليّ وهو مقطب الجبين ويعضّ على شفته السفلى ثم قال: يا سيد إيستربروك، لقد دفعت بك الظروف إلى الحصان الأشهب، ولكنك لا تدرك مدى الخطر الذي تتعرض له أنت وصديقتك. إنهم أشخاص شديدو الخطر، وسيكون الأمر شديد الخطر بالنسبة إليك، ولكنه سيكون أشدّ خطراً بالنسبة إلى صديقتك.

فقلت: أنا أعلم ذلك، وقد تجادلنا في هذا الموضوع ألف مرة وقلت بأنه لا يروقني الدور الذي تريد أن تقوم به، ولكنها عنيدة وقد حاولت معها بكل الطرُق دون جدوى.

فقال ليغون فجأة: ألم تقُل إنها شقراء؟ ليس من الحكمة أن تجادل شقراء، أنا أدرى منك بذلك.

وعندئذ استنتجت أن زوجته شقراء.

* * *

الفصل السادس عشر

(برواية مارك إيستربروك)

لم أشعر بأي انفعال في أثناء زيارتي الثانية لبرادلي، بل على العكس أقدمت عليه وأنا أشعر بسرور كبير. وكانت جنجر قد نصحتني قائلة: قم بتمثيل دورك جيداً كما لو كنت تريد التخلص من زوجتك حقاً.

واستقبلني السيد برادلي بابتسامة مرحّباً وقال وهو يبسط لي يده المكتنزة: يسرّني أن أراك مرة ثانية؛ فهذا معناه أنك قد فكرت في مشكلتك الصغيرة. لقد نصحتك أن تفكر جيداً وأن تتريّث.

- بل إنني في عجلة من أمري لأنني لم أعُد أستطيع الانتظار.

فنظر برادلي إليّ ولاحظ انفعالي الظاهر وعينَيّ المتهرّبتين وارتباكي وأنا أقلب قبّعتي بين يدي وقال: لنرَ الآن ماذا نستطيع أن نفعل. إنك تريد أن تتراهن معي على شيء، أليس كذلك؟ لا يوجد أفضل من رياضة بسيطة مثيرة كي تبدّد بها همومك ومشكلاتك.

وتركته يعرض عليّ بضاعته فقال: أنت عصبي وحريص، وأنا رجل يحب الحرص، ولا ريب أنك تخشى وجود شيء ما يسجّل

عليك أقوالك كآلة تسجيل مثلاً، ولكنني أقسم لك بشرفي أنه لا يوجد في مكتبي أي شيء من ذلك، وإذا لم تصدّقني فلك أن تذكر لي مكاناً آخر نلتقي فيه، كمطعم أو قاعة انتظار بأي محطة أو...

ولكنني قطعت عليه الحديث وقلت له إنني أثق فيه، ثم سردت عليه قصّتي بشيء من التردّد، وكان السيد برادلي على جانب كبير من الذكاء فقدّم إليّ المساعدة وأنا أسرد عليه قصّتي ذاكراً كلمة مناسبة لا يسعفني لساني على النطق بها، ومذللاً الصعاب بحيث لم أجد غضاضة في أن أذكر له حبّي الصبياني لدورين وزواجنا الذي عقدناه سرّاً.

تنهّد برادلي وقال وهو يهزّ رأسه: هذا أمر كثير الشيوع، شاب يؤمن بالمُثل العليا وفتاة جميلة لا يلبث أن يربط الزواج بينهما طَوال العمر، ولكن ما الذي حدث بعد ذلك؟

وعندئذ حرصت على أن لا أقدّم له أية تفصيلات واكتفيت بأن أعطيه صورة من خيبة الأمل التي مُنيت بها وأنا أُدرك الخطأ الذي وقعت فيه، ثم تركته يعتقد أننا انفصلنا على أثر شجار، وإذا كان قد استنتج من ذلك أن زوجتي قد هربت مع رجل آخر فلا بأس. ثم قلت بحدة: وعلى الرغم من أنها لم تكُن كما اعتقدت تماماً إلا أنها كانت جميلة، جميلة جداً، وما كنت أتوقع قطّ أن تفعل ما فعلت!

- وماذا فعلت بالضبط؟

- ما فعلته زوجتي بالضبط هو أنها عادت، وكنت أحسبها قد ماتت.

فهزّ برادلي رأسه وقال: فكرة مطابقة لرغباتك. ولكن لماذا حسبت أنها ماتت؟

- لأنها لم تكتب لي إطلاقاً، كما أنني لم أسمع عنها شيئاً.

- وكنت تريد أن تنساها، أليس كذلك؟

- بلى، هو ذلك. ثم إنني لم أكُن أفكّر في أن أتزوّج مرة أخرى.

- ولكنك غيّرت رأيك الآن، أليس كذلك؟

فقلت على مضض: حسناً، إنني...

واعترفت له بشيء من الخجل بأنني أفكر في الزواج حقاً، ولكنني توخّيت الحرص في كلامي ورفضت أن أقدّم له أية تفصيلات فيما يتعلق بالفتاة التي وقع عليها اختياري. وأظن أنني قمت بدوري خير قيام، ولم يحاول أن يستزيدني إيضاحاً واكتفى بأن قال: هذا شيء طبيعي أيها الصديق العزيز. لقد نسيت التجرِبة الفاشلة التي خضتها في شبابك ثم وقعت على الرفيقة المثالية التي يمكن أن تشاركك ذوقك الأدبي وتقدّر طريقتك في الحياة.

وأدركت من كلماته هذه أنه يعرف كل شيء عن هرميا، فما كاد يصله خطابي الذي أطلب فيه أن يحدّد لي موعداً حتى قام بتحرّياته، فعرف أنه ليس لديّ غير صديقة واحدة. ثم قال: وما رأيك في الطلاق؟ أليس حلاً سهلاً؟

- لا جدوى منه، إنها... إن زوجتي لا توافق عليه.

- وما هي نواياها فيما يتعلق بك؟ إذا جاز لي أن أسأل.

- إنها تريد أن تستعيد حياتها الزوجية معي، وهي لا تصغي إلى صوت العقل، وعلى الرغم من أنها تعلم بوجود فتاة غيرها إلا أنها...

فقاطعني قائلاً: هذا موقف بغيض حقاً. يبدو أنه لا يوجد حل، إلا إذا... ولكنها ما زالت في عنفوان الشباب.

فقلت بمرارة: إنها سوف تعيش سنوات طويلة.

- وما أدراك يا سيد إيستربروك؟ لقد قلت لي إنها كانت تقيم في الخارج، أليس كذلك؟

- هكذا قالت لي، ولكنني لا أدري أين.

- لعلها كانت في الشرق، وغالباً ما يصاب المرء في هذه الجهات بميكروب خبيث لا يظهر تأثيره لسنوات طويلة، وحين يعود إلى الوطن يتحرك هذا الميكروب ويستفحل خطره بسبب تغيير الجوّ. لقد عرفت حالة أو حالتين من هذا النوع، وربما كان هذا هو نفس الأمر في الحالة التي تهمّنا الآن، وإذا كان هذا يسرّك فإنني مستعدّ أن أتراهن معك على مبلغ صغير بأن ذلك قد يقع.

فهززت رأسي وقلت: إنها ستعيش حتى تبلغ المئة من عمرها.

- إن موقفك يبدو أفضل من موقفي بكثير، ومع ذلك سأقبل المخاطرة. ألف وخمسمئة جنيه نظير جنيه واحد على أنها ستموت قبل عيد الميلاد، فما رأيك؟

- بل أريدها أن تموت قبل هذا بكثير؛ فلا أستطيع الانتظار لأنه توجد أشياء...

وتظاهرت بالارتباك وقلت في نفسي: أتراه حسب أن علاقتي بهرميا قد بلغت حداً لا أستطيع معه الانتظار، أم أن زوجتي هدّدت بإثارة فضيحة؟ أم لعله حسب أنه يوجد غريم يحاول الاستئثار بهرميا دوني؟ مهما يكُن فلا يهمّني ما خطر له، وحسبي أن يعلم

أنني في عجلة من أمري وكفى.

ثم قال: هذا يغير الموقف بعض الشيء، إذن لنقُل ألفاً وثمانمئة جنيه مقابل جنيه واحد. أراهنك بهذا المبلغ على أن زوجتك ستموت بعد شهر ابتداء من اليوم. إن قلبي يحدّثني بذلك.

فرأيت أن اللحظة قد حانت للمساومة، ثم إنني لم أكُن أملك مثل هذا المبلغ، فذكرت له ذلك ولكنه كان قد تحرّى عنّي وعرف إمكانياتي عند الضرورة، ثم إنه كان يعلم أن هرميا تملك ثروة لا بأس بها، وقد أشار إلى هذه النقطة بالذات بلباقة وكياسة قائلاً إنني إذا تزوّجتها فلن يهمّني مثل هذا الرهان، ومن ناحية أخرى فإن الرغبة التي أبديتها جعلته في موقف ممتاز، فلم يتزحزح عن المبلغ الذي ذكره. ثم وقّعت على عقد محرّر بطريقة قانونية لم أفهم منها شيئاً فسألته قائلاً: هل يربطني هذا العقد من الناحية القانونية؟

فأجاب وهو يضحك كاشفاً عن أسنانه البيضاء اللامعة قائلاً: لا أعتقد أن من مصلحتنا إبرازه للاستشهاد به. إن الرهان يظل رهاناً، وإذا لم يفِ الحُرّ بالوعد الذي قطعه على نفسه... ولكنني أنصحك بأن لا تفكر في ذلك، أنصحك من كل قلبي، فنحن لا نحب المخادعين الذين يحاولون التهرّب من الوفاء بقيمة الرهان. والآن دعنا نتكلم في التفصيلات. لقد قلت لي إن السيدة إيستربروك موجودة في لندن، ففي أي مكان بالضبط؟

- هل من الضروري أن أخبرك بذلك؟

- طبعاً، فلا بدّ لي من معرفة كل التفصيلات، أما الخطوة التالية فهي أن أدبّر لك موعداً لزيارة الآنسة غراي. هل تذكرها؟

فأجبته بالإيجاب فاستطرد قائلاً: إنها امرأة مدهشة وموهوبة

حقاً، وسوف تطلب منك أن تأتيها بشيء يخصّ زوجتك، كقفّاز أو منديل.

- لماذا بالله عليك؟

- لا تلقِ عليّ أي سؤال؛ فليس لديّ أية فكرة عما يدور هناك. إن الآنسة غراي تحتفظ بأسرارها ولا تفضي بها لأحد.

- ولكن ماذا سيحدث؟ ماذا ستفعل بالضبط؟

- صدّقني يا سيدي، أنا لا أعرف شيئاً ولا أريد أن أعرف.

وسكت لحظة ثم استطرد قائلاً بلهجة أبوية: ما أنصحك به الآن يا سيد إيستربروك هو أن تذهب إلى زوجتك وتتملّقها، ودعها تعتقد أنك تفكر في مصالحتها. قل لها إنه لا بدّ لك من السفر إلى الخارج وستغيب بضعة أسابيع، ثم غافلها وخُذ منها شيئاً مما تلبسه عادة، وبعد ذلك اذهب به إلى ماتش ديبنغ.

وصمت لحظة مفكراً ثم قال: أظن أنك ذكرت لي في زيارتك السابقة أن لك أصدقاء في تلك الأنحاء، أليس كذلك؟

- بلى، لي ابنة عم.

- حسناً، لعلها ستوافق على استضافتك ليوم أو يومين.

- وماذا يفعل الأشخاص الآخرون عادة؟ هل يقيمون في نُزل القرية؟

- ربما، أو لعلهم يذهبون إلى بورنموث، لا أدري حقاً. قُل لابنة عمك إنك تريد أن تشهد إحدى الجلسات في الحصان الأشهب، ولن يثير هذا الأمر دهشة أحد لأن الآنسة غراي وصديقتها يُقمن الجلسات من آنٍ لآخر، وأنت تعرف ما تثيره

الأمور الروحانية من جدل ونقاش. قل إنك لا تصدّق ذلك وإن الفضول هو الذي يدفعك إلى أن تشهد إحدى هذه الجلسات... الفضول لا غير.

- وماذا بعد ذلك؟

فهزّ رأسه وهو يبتسم ثم قال: أنا لا أدري أكثر من ذلك. إن الآنسة غراي تتكفل بالباقي. لا تنسَ القفاز أو المنديل، وبعد أن تنتهي الجلسة أنصحك بأن تقوم برحلة قصيرة إلى الريفيرا الإيطالية لمدة أسبوع أو أسبوعين؛ فهي مكان جميل في هذا الوقت بالذات.

ولكنني قلت له إنني أنوي البقاء في إنكلترا فقال: حسناً، حسناً، ولكنني أنصحك بعدم البقاء في لندن مهما كان الأمر.

- لماذا؟!

فألقى برادلي إليّ نظرة عتاب ثم قال: إننا نضمن لعملائنا الأمان التام، ولكن بشرط أن يطيعوا أوامرنا.

- وماذا عن بورنموث؟ هل يمكنني أن أبقى بها؟

- نعم، لا بأس بها. انزل بالفندق وتصادق مع بعض الأهل وأظهِر نفسك بينهم في كل مكان، ويمكنك أن تمضي إلى توركاي إذا سئمت الإقامة في بورنموث.

وكان يتكلّم برقّة ورفق كما لو كان موظفاً بمكتب من مكاتب الرحلات السياحية. ومرة أخرى اضطُررت إلى أن أضغط على يده المكتنزة.

* * *

الفصل السابع

(برواية مارك إيستربروك)

قالت رودا: هل تريد أن تشهد جلسة تيرزا حقاً؟ لم أكُن أعلم أنك تهتم بمثل هذه الأمور.

فقلت بصدق: إنني لا أهتمّ بها فعلاً، ولكن أمر أولئك الفتيات غريب، ويستبدّ بي الفضول إلى رؤية ما يدور في جلساتهن.

والحق أنني شعرت بالارتباك لأنني لم أهتدِ إلى سبب معقول أُبرز به رغبتي هذه، ثم رأيت من طرف عيني هوج دسبارد ينظر إليّ بشيء من التفكير، وقد كان رجلاً ذكياً قضى حياته كلها في الأخطار والمغامرات، كما أنه من هؤلاء الرجال الذين تتحفّز حاسته السادسة حين يتعلق الأمر بالخطر، وكنت متأكداً من أنه يعتقد أنه يوجد شيء أكثر من الفضول يدفعني إلى زيارة الحصان الأشهب. ثم قالت رودا: إذن سأرافقك؛ فأنا أريد أن أحضر إحدى هذه الجلسات.

فصاح زوجها قائلاً: هذا لن يكون.

- ولكنني لا أؤمن بالأرواح، وأنت تعلم ذلك جيداً. لا أريد إلا أن ألهو.

- لا يوجد أي لهو في مثل هذه الجلسات. إن وقعها شديد السوء على الذين يحضرونها بدافع الفضول لا غير.

- إذن أقنع مارك بأن لا يذهب.

- أنا لست مسؤولاً عنه.

ولكنه رماني بنظرة خاطفة كانت تنطق بكل شيء، وكنت متأكداً من أنه يعلم أنه يوجد سبب قوي يدفعني إلى هذا التصرّف. وقد حزنت رودا ولكنها اضطُرت إلى أن تلزم الصمت.

وحين التقينا بتيرزا غراي في سوق القرية طرقت تيرزا الموضوع الذي يهمّني مباشرة فقالت: كيف حالك يا سيد إيستربروك؟ أرجو أن تكون راضياً. إن سيبيل وسيطة رائعة، ولكنني لا أدري ماذا تكون النتيجة، وأرجو أن لا يخيب ظنك. أنا لا أطالبك إلا بشيء واحد، وهو أن تكون صافي الذهن، فنحن نرحّب بالباحث الشريف، ولكن الزائر الطائش قد يُلحِق بنا ضرراً كبيراً. هل لك أن تأتي وتتناول معنا وجبة خفيفة؟ نحن لا نأكل كثيراً قبل أية جلسة. ما رأيك في الساعة السابعة؟ حسناً، سنكون في انتظارك.

ثم هزّت رأسها مبتسمة وابتعدت بخطوات سريعة، ونظرت إليها وهي تختفي وأنا غارق في أفكاري إلى درجة أنني لم أسمع شيئاً مما تقوله رودا ولم أنتبه إليها إلا وهي تقول: إنك تتصرف تصرفاً عجيباً هذه الأيام يا مارك، فهل يوجد ما يزعجك؟ لا ريب أنك عاشق. نعم، هذا هو السبب. إن للحب أسوأ الأثر على الرجال، فهو يجعلهم يقومون بأفعال حمقاء، ولكنك على حق لأنها فاتنة.

- مَن تعنين؟

- هرميا روكليف طبعاً. هل تظن أنني لم ألحظ شيئاً؟ إنها الفتاة التي تناسبك حقاً، فهي جميلة وذكية وتليق بك.

ثم أدارت إليّ ظهرها قائلة إنها ستمضي إلى الجزّار، فانتهزت هذه الفرصة وقلت لها إنني ذاهب إلى الأبرشية، ثم قلت كي أعفيها من التأويلات: ولكنني لست ذاهباً كي أقوم بإجراءات الزواج.

* * *

خُيّل إليّ وأنا أدخل الأبرشية أنني أدخل بيتي. وكان الباب مفتوحاً على مصراعيه، وما كدت أجتازه حتى خُيّل إليّ أن حملاً ثقيلاً انزاح عن كتفي. وأقبلت السيدة دين كالتروب من باب في آخر الدهليز وابتدرتني قائلة: صباح الخير، أهذا أنت؟ ماذا فعلت؟

فرويت لها كل شيء، وقد أنصتت إليّ باهتمام دون أن تقاطعني ثم سألتني بتأمل قائلة: هل من الضروري أن تكون الجلسة الليلة بالذات؟

- نعم.

ولزمت الصمت لحظة وقد استغرقت في التفكير، فلم أتمالك نفسي وصِحت قائلاً: إنني لا أحب هذا. آه، يا إلهي! هذا لا يروقني.

- وما الذي لا يروقك؟

لم أدرِ بماذا أجيب عليها ولكنني قلت: أنا شديد القلق عليها.

فنظرت إليّ برقة فاستطردت قائلاً: إنك لا تعرفين إلى أي مدى هي شجاعة، وإذا حدث وأصابوها بأي أذى...

فقالت السيدة دين كالتروب ببطء: لا أظن أنهم يستطيعون إيذاءها؟

- ولكنهم ألحقوا الأذى بغيرها.

فقالت السيدة دين كالتروب بهدوء: يجب أن يتعرّض أحدنا للخطر. إن الذي يجرح كبرياءك هو أنها هي التي تقوم بالدور الفعّال لا أنت، ولكنك تعلم تماماً أن جنجر خير من يصلح لهذا الدور؛ فهي تستطيع أن تتمالك جأشها، فضلاً عن أنها تتمتع بذكاء كبير ولن تتخلى عنك.

- ليس هذا ما يزعجني.

- يمكنك أن تطمئنّ من ناحيتها، فلن يفيدها انزعاجك هذا ولن ينفعها أي ضجر، وإذا ماتت نتيجة هذه التجرِبة فستموت من أجل غرض نبيل.

- يا إلهي، أنت قاسية يا سيدتي!

- يجب أن يكون الإنسان قاسياً في بعض الأحيان، يجب أن يواجه أسوأ الأمور لأن هذا يهدئ الأعصاب.

وهزّت رأسها مؤكّدة فقلت بشيء من الشك: ربما كنت على حق. هل يوجد هاتف في البيت؟

- طبعاً.

- بعد أن تنتهي الجلسة الليلة أريد أن أظلّ على صلة بجنجر وأن أتكلّم معها في الهاتف كل يوم، فهل أستطيع أن أتصل بها من هنا؟

- بكل تأكيد، فإن بيت رودا دائم الحركة ولن يمكنك أن

تتكلّم معها هناك في هدوء.

– سأمكث عند رودا بضعة أيام ثم أنتقل بعدها إلى بورنموث؛ فليس من المفروض أن أعود إلى لندن.

فقالت السيدة دين كالتروب: لا داعي إلى التفكير في الغد، فكّر في هذه الليلة فحسب.

ثم نهضت واقفاً، وعندئذ نطقت بجملة غير مناسبة، فقد قلت: ادْعي لي، ادْعي لنا.

فأجابت كما لو كنت قد طلبت منها شيئاً طبيعياً: بكل تأكيد.

* * *

استقبلني القوم في الحصان الأشهب استقبالاً حافلاً لم أكُن أتوقّعه، فقد فتحت تيرزا غراي الباب، وكانت تلبس ثوباً من الصوف الأسود، ثم قالت: آه، أهذا أنت؟ نستطيع أن نتناول العشاء الآن.

كانت طبيعية جداً، ومع ذلك كانت غامضة. وكانت المائدة قد أُعدّت في آخر القاعة، وقدّمت لنا بيللا، وهي ترتدي ثياباً سوداء، وجبة من أبسط الوجبات، أما سيبيل فقد ارتدت ثوباً متعدّد الألوان له جدائل مذهّبة، ولكنها لم تكُن تضع تعاويذها أو أحجيتها وإنما كانت تضع في يديها سوارين ثقيلين، وقد أكلت قليلاً وتكلّمت قليلاً وهي تتظاهر بعدم الاكتراث بالعالَم وما فيه.

ثم قامت تيرزا غراي بدور الإنكليزية العانس ولم تتوقف عن الحديث، فذكرت كل الشائعات التي تدور في الريف، فقلت

أحدّث نفسي: ما أشدّ حماقتي وغبائي! ماذا أخشى؟ كيف جنح بنا الخيال أنا وجنجر بشعرها المصبوغ واسمها المستعار؟ وكيف يمكن أن تتعرض للخطر من إحدى هؤلاء النسوة الثلاث العاديات؟ هذا غريب!

وقالت تيرزا بعد أن فرغنا من العشاء معتذرة: لن نقدّم قهوة لأن المنبهات محظورة هذه الليلة.

ثم نهضت من مكانها وهي تقول: سيبيل.

فأجابتها الأخيرة بلهجة غريبة قائلة: أجل، يجب أن أستعدّ.

ثم قامت بيللا برفع الأطباق، ومضيت أنا فوقفت أمام اللافتة فتبعتني تيرزا قائلة: لا تستطيع أن ترى شيئاً في هذا الضوء.

وكان هذا صحيحاً؛ فقد كان الضوء خافتاً لا يسمح بتمييز هيكل الحصان، ثم قالت: تلك الفتاة ذات الشعر الأحمر، ما اسمها؟ آه، جنجر. ولكنني لا أعرف لقبها، تلك التي جاءت برفقتكم في ذلك اليوم. لقد قالت إنها تستطيع تنظيفها، ولكن لا ريب أنها نسيت ذلك.

ولا تسَلْني عن الانفعال الذي تملّكني وأنا أسمعها تتحدّث عن جنجر بمثل ذلك الاستخفاف. ثم استطردت تيرزا تقول وهي لا تدري شيئاً مما بي: إنها ليست لوحة جيدة، ولكنها جزء من البيت. إن عمرها أكثر من ثلاثمئة سنة.

- نحن على استعداد.

واستدرنا فجأة فإذا بيللا قد برزت أمام الباب وجاءت تستدعينا، فقالت تيرزا بصوت رقيق: آن لنا أن نهتم بما يهم.

ثم تبعتها إلى حظيرة الخيل القديمة، وكانت الحظيرة في أثناء النهار مكتبة جميلة، أما بالليل فقد تغيّر شكلها، فكان فيها نور غير مباشر يلقي ضوءاً خافتاً، وفي وسط القاعة أقيمت أريكة كبيرة مكسوّة بالقماش الأحمر رُسمت فوقه علامات سحرية، وفي آخر القاعة يوجد موقد كبير وبجواره وعاء من النحاس، وأمام الموقد عند الحائط تقريباً رأيت مقعداً ثقيلاً من الخشب أشارت إليه تيرزا قائلة: اجلس هناك.

فجلست، ورأيت أن طريقة تيرزا قد تغيّرت، ولكنني لم أتمكّن من تحديد شيء ما. لقد بدا لي أن ستار الحياة العادية قد أُزيل وأنها كشفت عن شخصيتها الحقيقية كالجرّاح حين يهمّ بإجراء عملية خطيرة، ثم ازداد شعوري هذا عندما رأيتها ترتدي ثوباً طويلاً يبدو وكأنه مصنوع من الأسلاك المعدنية وقفازاً من نفس النوع، وخُيّل إليّ أن هذه الأسلاك قد صُنعت خصيصاً كي لا يخترقها الرصاص، ثم قالت: يجب أن نحتاط لكل شيء.

ثم غيّرت لهجتها واستطردت تقول بوقار وبكثير من المبالغة: سألفت نظرك إلى نقطة هامة يا سيد إيستربروك، وهي أنه لا يجب أن تتحرك من مكانك مهما كانت الظروف والأسباب لأنه قد يكون في ذلك خطر شديد، فنحن لسنا بإزاء لعبة من ألعاب الأطفال، إنني أشترك في نضال مع قوى شديدة الخطر على الذين لا يعرفون مسايرتهم. هل أحضرت ما طلبناه منك؟

فأخرجت من جيبي قفازاً من الجلد الأسمر أعطيته لها دون أن أنطق بكلمة، فأخذته تيرزا ومضت إلى مصباح أضاءته وأبقت القفاز بضع لحظات تحت الضوء الذي عكس له لوناً باهتاً، ثم أطفأت النور وهزّت رأسها بارتياح قائلة: حسناً، إن الانبثاق

الطبيعي لصاحبته قوي جداً. ثم وضعته فوق صندوق أشبه بالمذياع وقالت بصوت مرتفع بعض الشيء: بيللا، سيبيل، نحن على استعداد.

وكانت سيبيل أول من أقبل، وقد ألقت فوق ثوبها المتعدّد الألوان معطفاً أسود فخلعته بحركة مسرحية وتقدّمت قائلة: أرجو أن يسير كل شيء على ما يرام، فلا يدري أحد ما قد يقع. إن وجود شخص متشكّك معنا يثير أكبر الإزعاج أيها السيد.

فقالت تيرزا بلهجة جافة: إن السيد إيستربروك لم يأتِ ليلهو. ثم التفتت إليّ وسألتني باهتمام قائلة: هل أنت على ما يرام هكذا؟

- نعم، شكراً لك.

وأطفأت تيرزا بضعة مصابيح، ثم جاءت بحاجز فوضعته أمام الأريكة بحيث بقيت سيبيل في مكان يكاد يكون مظلماً ثم قالت: إن الضوء مضرّ للوسيط في أثناء الغيبوبة. نحن على استعداد الآن يا بيللا.

فبرزت هذه الأخيرة من الظلام، ثم اقتربت المرأتان منّي فأخذت تيرزا قبضتي اليسرى بيمناها وأمسكت بيسراها يمنى بيللا في حين أمسكت هذه الأخيرة يمناي بيسراها. وكانت راحة تيرزا خشنة وجافة في حين كانت راحة بيللا باردة رخوة، وقد شعرت أنني أمسك بفأر رخو فارتجفت لفرط التقزز.

ولا ريب أن تيرزا أدارت مفتاحاً ما لأن صوت الموسيقى الجنائزية لمندلسوهن انتشر في المكان، فقلت أحدّث نفسي بشيء من الضيق: إخراج مسرحي رائع.

وحاولت الاحتفاظ بصفاء ذهني ولكنني شعرت بشيء من

الخوف، ثم سكتت الموسيقى ولم نعُد نسمع سوى صوت أنفاسنا، أنفاس بيللا اللاهثة وأنفاس سيبيل العميقة المنتظمة. وفجأة تكلّمت سيبيل ولكن لم يكُن صوتها هو الذي سمعته وإنما كان صوت رجل، صوتاً غليظاً خشناً له رنة أجنبية قال: ها أنا ذا.

فأطلقت المرأتان يدَيّ واختفت بيللا في الظلام في حين قالت تيرزا: مساء الخير، أهذا أنت يا ماكاندال؟

- أنا ماكاندال.

اقتربت تيرزا من الأريكة فسحبت الحاجز فسقط الضوء الخافت على وجه سيبيل، وكان يبدو أنها غارقة في نوم عميق، كما أن قسمات وجهها الرقيقة لم تعُد كما هي، فقد بدت أصغر سناً وأكثر جمالاً. ثم قالت تيرزا متسائلة: هل أنت مستعدّ لطاعة أوامري يا ماكاندال؟

فأجابها الصوت الغليظ قائلاً: نعم، أنا مستعدّ.

- هل تعِدُني بأن تصون جسد تلك التي ترقد أمامنا، والذي تتقمصه أنت في الوقت الحالي، من كل خطر؟ هل تعِدُني بأن تضع قواك في خدمتي وأن تنفّذ ما أقول؟

- أعِدُك بذلك.

- هل تريد أن تستخدم هذا الجسد كناقل للموت؟

وبعد ذلك ارتدّت تيرزا خطوة إلى الوراء في حين دنت بيللا وهي تمسك شيئاً رأيت أنه عبارة عن تميمة، ثم وضعت تيرزا التميمة فوق صدر سيبيل. وكانت تتكلم بطريقة عادية طبيعية ولكنها لم تبدّد جوّ السحر المحلق فوق رؤوسنا، ثم جاءت بالقَرعة البغيضة التي سبق أن أرتنا سيبيل إياها وهزّتها ثلاث مرات فوق

سيبيل قبل أن تضعها بين يديها، ثم ارتدّت إلى الخلف وقالت: نحن على استعداد.

كانت تيرزا تراقبني وشعرَت بالتقزز الذي ينتابني فقالت: إن هذا لا يروقني كثيراً، ولكنها عادة قديمة.

لم تفعل شيئاً كي تزيد من تأثير الموقف، وكان يبدو أنها قانعة بدور المعلّق والمفسّر. ومدّت بيللا يدها نحو الموقد فارتفع لهب عالٍ، ثم ألقت في النار شيئاً انبعثت منه رائحة كريهة، فقالت تيرزا مرةً أخرى: نحن على استعداد.

وبعد ذلك اتجهت إلى الصندوق الذي يشبه المذياع وفتحته فكشف عن مجموعة من الأسلاك المعقدة التركيب، ثم نقلته بحرص فوق الأريكة بجوار سيبيل، وانحنت فوقه وأخذت تدير بعض المفاتيح بعناية ودقة ظاهرتين وهي تحدّث نفسها قائلة: درجة إلى الشمال الشرقي، درجة إلى... هو كذلك.

وبعد ذلك أخذت القفاز وعرّضته بحذر لأشعة مصباح بنفسجي اللون، ثم خاطبت المرأة الراقدة فوق الأريكة قائلة: سيبيل وديانا وهيلين، انطلقن وتقمّصن صاحبة هذا القفاز. إنها كغيرها من البشر لا تتمنى شيئاً غير الموت، الموت الذي يحلّ المشكلات ويمنح السلام. الموت، الموت.

ودوّت كلماتها في أرجاء الغرفة وتردّد صداها بشكل مخيف، ثم انبعث من الصندوق صوت أشبه بالصوت الذي يصدر من المحرّك، كما أخذت المصابيح التي بداخله تضيء ثم تنطفئ بحركة آلية. فتملّكني الذهول والغضب؛ فقد كنت أشعر شعوراً جازماً بأنه يوجد شيء يدور حولي لم أستطع أن أنظر إليه نظرة السخرية كما كنت أتوقع. ولكن ما دور الصندوق في كل هذا؟

وفجأة عادت مخاوفي كلّها إليّ وسألت نفسي: على أي سرّ جهنّمي يحتوي هذا الصندوق؟ هل تصدر منه أشعة يمكن أن تؤثر على مخّ شخص غريب؟

وكانت تيرزا لا تزال تتكلم قائلة: نقطة الضعف في الجسد البشري، توجد نقطة ضعف دائماً. إن القوة تنبثق من الضعف، القوة والحب والموت، نحو الموت البطيء، نحو الموت، المنقذ الوحيد. إن نسيج الجسم يطيع المخّ، ويصدر هذا الأخير أمره للجسم بالموت، الموت القاهر العاجل، الموت، الموت.

وبعد ذلك أخذت بيللا تدور حول المقعد الذي أجلس فوقه وهي تصرخ قائلة بصوت مرتفع: الموت، الموت... ثم هوت إلى الأرض وهي تتلوّى، ثم خبت النار. وشعرت بغصة وتقلّصت يداي فوق المقعد ولم أعُد أرى شيئاً، ولكنني لم ألبث أن سمعت لولباً يُدار، ثم توقف الصندوق عن الحركة.

* * *

الفصل الثامن عشر

(برواية مارك إيستربروك)

سألتني رودا ونحن نتناول طعام الإفطار: كيف كانت الجلسة؟

فأجبتها دون اكتراث قائلاً: عادية.

وشعرت بعينَي دسبارد تخترق أعماقي في حين عادت رودا تقول: هل رسمن علامات فوق الأرض؟

- نعم، علامات كثيرة.

- هل راحت سيبيل في غيبوبة؟

- نعم.

ثم قالت ابنة عمّي بلهجة من خاب أمله: يبدو أن الجلسة لم تعجبك.

- الحق أنه لم يكُن فيها ما يثير الاهتمام، ولكنني أشبعت فضولي.

وبعد ذلك ذهبت رودا إلى المطبخ فقال دسبارد يخاطبني: لا ريب أنك صُدمت بعض الشيء.

فوددت لو أنني ذكرت لدسبارد كل شيء، ولكنني خشيت أن لا ينظر إلى الأمر نظرة جادة فاكتفيت بأن قلت: لقد كان ذلك أقرب إلى الهمجية.

فأومأ دسبارد برأسه وقال: من الصعب أن يتقبّل العقل هذه الأشياء، ولكنها تقع في الحقيقة، وقد رأيت الكثير منها في إفريقيا الشرقية. إن للطبيب هناك سلطاناً كبيراً على القوم، وقد شهدت أشياء من الصعب أن أجد لها تعليلاً منطقياً.

- كالموت مثلاً؟

- نعم، فلو علم رجل أن الموت قد وسمه فإنه لا يلبث أن يموت فعلاً، ولكن يبدو أن هذا لا يسري على الأوروبيين إلا إذا آمنوا به.

فقلت وأنا أفكّر: أنا أوافقك على أن أشياء غريبة قد تقع؛ فقد رأيت في أحد مستشفيات لندن فتاة تشكو من آلام فظيعة في ذراعها في حين أنه لم يكُن يوجد ما يبرّرها، وقد بدا لي أنها مصابة بالهستيريا. وقال لها الطبيب إن من الممكن أن يشفيها بأن يضع مكواة ساخنة فوق ذراعها، فرضيت الفتاة بالعلاج وأطبقت عينيها، ثم حوّلت رأسها وأطلقت صرخة عالية حين وضع الطبيب فوق ذراعها قضيباً من الزجاج غمسه قبل ذلك في ماء مثلج، ثم قال لها: "ستشعرين بتحسّن بعد وقت قصير"، فأجابته المريضة بقولها: "لا شك في ذلك، ولكن العلاج كان فظيعاً". والغريب أن ذراعها كان منتفخاً وبه حروق في المكان الذي مسّه القضيب الزجاجي.

وسألني دسبارد باهتمام: وهل شُفيت؟

- طبعاً، ولكن كان لا بدّ من العناية بالحروق، وقد استغرب

الطبيب ذلك.

- من المؤكّد أنه استغرب هذا. لكن قل لي، لماذا كنت متشوقاً إلى حضور جلسة أمس؟

فهززت كتفي وأجبت قائلاً: إن أولئك النسوة يُثِرن حيرتي، وقد أردت أن أقف على صحة ادعاءاتهن.

فصمت دسبارد ولم يستزدني، ولكنني أحسست أنه لم يصدّقني. بعد ذلك ذهبت إلى دار الكاهن، وكان الباب مفتوحاً ولكن البيت بدا كما لو كان خالياً، فدخلت الغرفة الصغيرة التي فيها الهاتف واتصلت بجنجر، وقد مرّ وقت طويل خِلْته دهراً قبل أن تردّ عليّ قائلة: مرحباً.

- جنجر؟

- آه! أهو أنت؟ ماذا حدث؟

- هل أنت على ما يرام؟

وشعرت بارتياح كبير وسألت نفسي: كيف استطعت الاعتقاد ولو لمجرّد لحظة أن سلسلة من أعمال الشعوذة يمكن أن تؤذي مخلوقة معتدلة كجنجر! ثم قلت بلهجة يُرثى لها: لقد خطر لي أنك قد تعانين من كابوس مخيف.

- حسناً، أنا على ما يرام. لقد كنت أتوقع أن يصيبني شيء، ولكن كل ما حدث هو أنني ظللت مستيقظة طَوال الليل وأنا أتساءل: هل يقع لي شيء غريب؟ والحق أنني غاضبة لأنه لم يقع لي شيء.

فاستولى عليّ ارتياح كبير في حين استطردت قائلة: ولكن ما الذي حدث؟

- لا شيء أكثر من أن سيبيل استلقت فوق أريكة وراحت في غيبوبة.

فضحكت جنجر وقالت: وماذا فعلت بيللا؟

- أخذت قفازك وعرّضته لأشعة مصباح بنفسجي اللون.

- آه، يا للفظاعة! وماذا غير ذلك؟

- أشياء كثيرة، فقد قامت تيرزا بخدعتها الكبرى فاستحضرت روحاً اسم صاحبها ماكاندال، وكانت توجد أنوار مختلفة الألوان وترنيمات وكل ما من شأنه إلقاء الرعب والذعر في أفئدة قوم سريعي التأثر.

- ولكن هل ألقت الرعب في فؤادك أنت؟ ألم تخَف من شيء آخر؟

- إن مثل هذه الأشياء لا تؤثر فيّ عادة.

- أجل، ولكن لماذا تنهّدت ارتياحاً عندما علمت أنني على ما يرام؟

- حسناً، ذلك لأنه...

فقاطعتني قائلة: لا بأس، لا داعي إلى الردّ على هذا السؤال، ولا داعي إلى إظهار عدم الاكتراث، ولكن يوجد شيء أثارك، فما هو؟

- لا شيء غير اعتقاد تيرزا الأكيد بالنتيجة الحتمية.

- اعتقادها بأن ما رويته لي الآن يمكن أن يقتل إنساناً؟

كانت لهجة جنجر تدل على الدهشة وعدم التصديق، فقلت: نعم.

- وهل تؤمن بيللا بالنتيجة هي الأخرى؟

فأجبت وأنا أفكر قائلاً: كان يكفي أن ترَيها وهي تصيح قائلة: الموت، الموت.

فقالت جنجر بأسف: وددت لو أنني شهدت ذلك. هل زال خوفك الآن؟

- ماذا تعنين؟

- ألم تكُن خائفاً حين اتصلت بي منذ قليل؟

وكانت على حق لأن رنة الفرح التي ينطق بها صوتها كان لها في نفسي وقع طيب، ثم قمت برفع قبعتي لتيرزا غراي لأنها أفلحت في بذر حبوب الشك والخوف في نفسي، أما في تلك اللحظة فلم يعُد يهمّني شيء لأن جنجر في أحسن حال فيما عدا... فقطعت عليّ تفكيري بأن سألتني قائلة: ماذا سنفعل بعد ذلك؟ هل يجب أن أبقى حبيسة البيت أسبوعاً؟

- طبعاً، إذا كنت تريدين أن أحصل على مئة جنيه من السيد برادلي.

- ما دام الأمر كذلك فلن أخرج، ولكن ماذا عنك؟ هل تبقى عند رودا؟

- لبضعة أيام أخرى، ثم أنتقل بعدها إلى بورنموث. اتصلي بي كل يوم هاتفياً، أو أظن أنني أنا الذي سأفعل لأن هذا أفضل. أنا في الأبرشية الآن.

- ستكون الأيام المقبلة باعثة على الضجر، لذا أتيت معي بعمل كي أشغل به نفسي، كما أحضرت كتباً لم أجِد وقتاً لقراءتها قبل ذلك.

- ألم يقترب منك شخص مشبوه؟

- لم يأتِ سوى اللبّان ومفتش العدّاد، وامرأة ألقت عليّ وابلاً من الأسئلة عن أنواع الأدوية والعقاقير ومستحضرات التجميل التي أستخدمها، وامرأة أخرى طلبت منّي التوقيع على التماس لتحريم القنابل الذرّية، وثالثة تجمع أموالاً لمساعدة العميان، كما جاء بوّاب العمارة وأصلح لي النور.

- كلّهم أناس عاديون.

- وماذا كنت تتوقع؟

- لا أدري.

كنت أرجو أن يقع شيء يسمح لي بالتدخل، ولكن لم ألبث أن تذكّرت أن ضحايا الحصان الأشهب يموتون ميتة طبيعية، فأبديت شكاً بشأن مفتش عدّاد النور، ولكن جنجر احتجت قائلة على الفور: لقد طلبت منه بطاقته الشخصية، كما أنه اكتفى بنقل الأرقام، ويمكنني أن أؤكّد لك أنه لم يلمس شيئاً في البيت. آه، لقد جاءني زائر آخر، وهو صديقك كوريغان. إنه رجل ظريف.

- لا ريب أن ليغون قد أرسله إليك.

- جعلني أعتقد أنه أسرع لنجدة قريب له من آل كوريغان.

ووضعت السماعة مكانها وأنا أشعر بارتياح كبير، ثم عُدت إلى رودا فوجدتها في الفِناء تغطي جسد كلب من كلابها بطبقة من الدهان وقالت: إن البيطري انصرف منذ لحظات، ويبدو أن هذا الكلب مصاب بالقراع، وهو مرض شديد العدوى ولا أريد أن ينتقل إلى الأولاد أو إلى غيره من الكلاب. إن هذا الدهان يساعد على إسقاط الشعر وبعد ذلك ينمو من جديد.

فهززت رأسي وعرضت عليها المساعدة ولكنها رفضت، فحمدت لها ذلك ومضيت أهيم على وجهي مرّة ثانية. ولم يكُن في ماتش ديبنغ غير ثلاثة أماكن يمكن للمرء التنزه فيها، وهي طريق كارسنغتون وطريق كوتنهام وطريق شارهانغر، وهو الذي يؤدي إلى طريق بورنموث لندن بعد ميلين.

وقضيت صباح اليوم التالي في التجوّل في شارعين غير الأولَين، ولكنني مضيت إلى طريق شارهانغر بعدما فرغت من تناول طعام الغداء. وكانت لي غاية محددة من ذلك لأن قصر بريو كورت يقع على هذا الطريق، وقد خطر لي أن أذهب لزيارة السيد فينابلز، وكانت هذه الفكرة قد اختمرت في رأسي منذ وقت طويل، ولم أخشَ أن يشتبه في زيارتي له لأن رودا قد ذهبت بي إليه في آخر مرة أقمت فيها لديها، ولن يستغرب زيارتي له مرة ثانية كي أشاهد مجموعات التحف التي يزخر بها قصره. وإذا كان ذلك الصيدلي أوسبورن قد أكّد أنه رآه في بادنغتون فإن لهذا الأمر أهمية شديدة، وإذا كان ليغون قد اقتنع بأنه مشلول فسوف يغتبط حتماً إذا أنا أتيته بدليل على ذلك.

كان فينابلز رجلاً غامضاً شديد الذكاء، بل مفرط الذكاء بحيث لا يُقدِم على القتل بنفسه، ثم تخيّلته وهو يضع الخطط ويدبّر الجرائم وهو جالس بهدوء إذ كان يتمتع بعقل جبّار. لقد أكدّ ذلك الصيدلي أنه رأى فينابلز يسير في أحد شوارع لندن، وما دام هذا الأمر قد اتضح استحالته فإن شهادة الصيدلي لم تعُد لها قيمة تُذكر، كما أن إقامة فينابلز على مقربة من الحصان الأشهب لا تعني شيئاً، ومع ذلك طاب لي أن أزوره.

* * *

فتح لي رئيس الخدم الباب وأجاب بأن سيده موجود ولكنه في حالة لا تسمح له باستقبال أحد ولهذا رجاني أن أنتظ، ثم عاد بعد ثوانٍ وقال لي إن فينابلز يسرّه أن يراني. وقد استقبلني هذا الأخير بترحيب كبير، وقال يخاطبني كما لو كان يخاطب صديقاً حميماً: إن قدومك كرم كبير يا صديقي. لقد سمعت أنك موجود بيننا، وكنت أنوي الاتصال برودا كي أطلب منها أن تصطحبك معها لتناول الغداء أو العشاء معي.

ورجوته أن يلتمس لي العذر بسبب زيارتي المفاجئة له، فقد رأيت نفسي أمام البيت ولم أشعر إلا وأنا أطرق الباب، ثم استطردت قائلاً: الحق أنني أريد أن ألقي نظرة أخرى إلى مجموعاتك المغولية؛ فقد ألقيت إليها نظرة عابرة في زيارتي السابقة.

- طبعاً، طبعاً. يسرّني أنك تقدّرها؛ فهي مجموعة جميلة ورائعة حقاً.

والواقع أنني أحسست بسعادة طاغية وأنا أستمتع برؤية تلك المجموعة الرائعة للمرة الثانية. ثم جيء بالشاي وأصرّ فينابلز على أن أبقى. وقد أكلت فطيرة لذيذة أعادت إلى ذاكرتي ساعة الشاي في بيت أجدادي عندما كنت طفلاً، فقلت لفينابلز: إن لديك طاهياً ممتازاً. ألا تجد صعوبة في الاحتفاظ بالخدم في مثل هذا المكان المنعزل؟

فهزّ فينابلز كتفيه وقال: إنني أحب الخدمة الممتازة، ولهذا فأنا أدفع بسخاء.

- إذا كان المرء محظوظاً في الحياة بما فيه الكفاية فإن هذا يحلّ الكثير من المشكلات طبعاً.

- هذا يتعلق بما يتمناه المرء كما تعلم، المهم هو أن تشتهي ما تريد بكل ما لديك من قوة. إن كثيراً من الناس يكدّسون المال دون أن تكون لديهم أية فكرة عن كيفية إنفاقه، وفي النهاية يجدون أنفسهم وقد جرّتهم عجلة السعادة وأصبحوا عبيداً للمال، ولا يفعلون شيئاً سوى أنهم يذهبون إلى مكاتبهم في وقت مبكّر ويغادرونها في وقت متأخّر، ولا يستمتعون بالحياة فيما عدا سيارة فارهة ومعيشة رغدة وزوجة مسرفة وصداع شديد. إن جمع المال هو غاية أكثر الرجال، ولكنهم لا يفهمون لماذا يجمعونه.

فسألته: وماذا عنك؟

فابتسم وأجاب قائلاً: أنا؟ لقد كنت أعرف ما أريد، وهو أن الأموال الطائلة ستكفل لي الاستمتاع بالأشياء الجميلة سواء كانت طبيعية أو صناعية. وما دمت قد أصبحت في حالة لا تمكّنني من الاستمتاع بها في أماكنها فإنني أعمل على إحضارها من كل مكان في العالَم.

- ولكن لا بدّ من الحصول على المال قبل ذلك.

- أجل، ولا بدّ لمن يريد الحصول على المال من إعداد خطة تكفل له الحصول عليه كما يريد، ومهما يكُن فلم يعُد يوجد أي مجال اليوم لمزاولة أي عمل من الأعمال التي لا يقرّها القانون.

- أنا لم أفهمك جيداً.

- نحن نعيش في عالَم متغيّر يا سيد إيستربروك، والعالَم يتغير دائماً، ولكنه يتغير اليوم بأسرع ما يمكن، وعلى المرء أن يعرف كيف يستفيد من ذلك.

فقلت وأنا أفكّر: عالَم متغيّر!

- إن ذلك يفتح لنا آفاقاً جديدة.

- أنت تتحدّث إلى رجل يهتمّ بالماضي ولا يشغله المستقبل.

فهزّ فينابلز كتفيه وقال: المستقبل؟ مَن الذي يمكنه أن يتنبّأ به؟ إنني أتكلم عن اليوم، اليوم الحاضر الذي نعيش فيه، اللحظة المباشرة، ولا أشغل نفسي بأي شيء آخر. إن العلوم الحديثة في متناول أيدينا ويمكننا أن نستخدمها، فنحن نملك الآن آلات تنجز في لحظات ما ينجزه الرجال في ساعات أو أيام.

- أتعني العقول الإلكترونية؟ ولكن هل تقوم الآلات مقام الرجال؟

- نعم، ستقوم مقام الرجال الذين يتجمّعون كوحدة للعمل، ولكنها لن تأخذ مكان الرجل؛ فلا غنى عن الرجل المراقِب، الرجل المفكّر الذي يفكّر في الأسئلة التي يطرحها على الآلات.

فهززت رأسي بغير اقتناع وقلت: أتعني الرجل الخارق؟

- ولِمَ لا يا سيد إيستربروك؟ نحن نعرف، أو بوجه أصحّ بدأنا نعرف شيئاً عن الرجل، ذلك الحيوان البشري، كما أن التجرِبة التي يدعوها البعض «غسيل المخّ» قد فتحت لنا آفاقاً واسعة في هذه الناحية فقد ثبت لنا أن المنبّهات لا تؤثر على الجسد فحسب، بل على العقل كذلك.

- ولكن هذه النظرية شديدة الخطر.

- شديدة الخطر؟

- نعم، بالنسبة إلى المرضى.

فهزّ فينابلز رأسه وقال: إن الحياة كلّها شديدة الخطر ولكننا ننسى ذلك. نحن الذين نشأنا في جزيرة صغيرة من التمدّن يا إيستربروك، فهنا وهناك جماعات صغيرة من الرجال نصّبوا أنفسهم للدفاع المشترك، وتمكّنوا من قهر الطبيعة وفرض سلطانهم عليها. لقد قهروا الغابة، ولكن هذا النصر مؤقّت لأن الغابة تستطيع أن تستردّ جبروتها في أي وقت. لقد كانت توجد مدن متعجرفة ولكن لم يعُد لها وجود اليوم، فقد أصبحت أرضاً تنبت فوقها حشائش متوحّشة، والقلائل الذين ظلوا على قيد الحياة يعملون بالزراعة. إن الحياة شديدة الخطر فلا تنسَ ذلك، ولكنني أعود فأقول إن عمل أيدينا هو الذي قد يدمّرها وليس قوى الطبيعة، وقد لا تكون تلك اللحظة بعيدة الوقوع.

- لا يمكن لأحد إنكار ذلك طبعاً، ولكن نظريتك تهمّني، تلك النظرية القائمة على السيطرة على العقل.

فبدا على فينابلز الضيق فجأة وقال: لا ريب أنني بالغت كثيراً.

وأدركت من ارتباك فينابلز وانزعاجه أنه يتراجع عن كلامه السابق. لقد كان رجلاً يعيش بمفرده وحيداً يحسّ دائماً بحاجة إلى التحدث مع غيره من الناس، مع أي شخص، وقد تحدّث معي، ولعله تكلّم دون رويّة أو حكمة. ثم قلت: ولكنك أثَرت اهتمامي بنظريتك الخاصة بالرجل الخارق.

- إنها نظرية قديمة ليس فيها جديد، وإنها ترجع إلى وقت بعيد وقد بُنيت عليها فلسفات كثيرة.

- طبعاً، ولكن يخيّل إليّ أن رجلك الخارق يختلف عن الخارق المعروف، إنه رجل يملك سلطاناً كبيراً ويزاول مقدرته

دون أن يدري أحد، رجل يجلس على مقعده ويحرّك الخيوط.

وكنت أنظر إليه وأنا أنطق بكلماتي الأخيرة فابتسم وقال: هل تنسب إليّ هذا الدور؟ وددتُ لو أستطيع ذلك، لا لشيء إلا لتعويض هذا.

وجرى بيديه فوق الغطاء الذي يغطي ساقَيه فقلت: أنا لا أريد أن أعبر لك عن إشفاقي عليك لأنه قليل، ولك أن تصدّق أنني إذا تصوّرت رجلاً يمكنه أن يحوّل الهزيمة إلى انتصار فإن هذا الرجل لا يمكن أن يكون أحداً غيرك.

فضحك وقال: أنت تتملّقني.

ولكنه كان راضياً، وكان هذا ظاهراً فقلت: لا، لقد التقيت بأناس كثيرين في حياتي وأستطيع أن أعرف الرجل الموهوب عندما ألتقي به.

وخشيت أن أكون قد تجاوزت الحدود، ولكنه قال وهو يفكر: ما الذي يدفعك إلى مثل هذا القول؟ هل هو كل هذا الذي تراه؟

ثم أشار بيديه إلى ما في الغرفة فقلت: إنما هذا دليل على ثرائك وحسن إدراكك للأمور من ناحية الشراء، وعلى سلامة ذوقك أيضاً، ولكن يوجد أكثر من الممتلكات الأرضية، وقد أشرت في حديثك إلى أن ثروتك إنما هي ثمرة عمل متواصل.

- هذا صحيح. إن الحمقى وحدهم هم الذين يكدّون ويكدحون، ويكفي أن يفكر المرء وأن يحسن التفكير ورسم الخطط بكل دقة. إن سرّ كل نجاح أمر بسيط، ولكن يجب أن يهتدي المرء إليه، يجب أن يهتدي إلى الفكرة وأن يضعها موضع التنفيذ.

فنظرت إليه مليّاً وقلت في نفسي: ما أبسط هذه الفكرة وما أسهلها! إن التخلص من أناس غير مرغوب فيهم عمل سهل التنفيذ ولا خطر منه إلا على الضحية نفسها، عمل يدبّره السيد فينابلز وهو جالس على مقعده المتحرّك وتنفّذه تيرزا غراي.

ثم ألقيت نظرة إلى ساعتي وقلت: لم أظن أن الوقت مرّ بنا هكذا سريعاً، إن ابنة عمي سوف تقلق عليّ.

– لقد واسيت رجلاً عاجزاً وقضيت معه فترة الأصيل فبدّدت وحدته وأساه. تحياتي لرودا، ولكن يجب أن نتّفق على غداء آخر. إنني ذاهب إلى لندن غداً لحضور مزاد سيعرضون فيه بعض التحف التي يرجع عهدها إلى عصور فرنسا الوسطى، وهي تحف رائعة وأنا متأكد من أنك سوف تقدّرها إذا وُفّقت في شرائها.

وافترقنا عقب ذلك وأنا في عجب من أمره.

* * *

الفصل التاسع عشر

(برواية مارك إيستربروك)

كان الشفق قد غاب وراء الأفق وخيّم الظلام على المكان فلم أتبيّن طريقي جيّداً، واستدرت وأنا في حديقة البيت كي ألقي نظرة أخيرة على النوافذ المضاءة، وبينما أنا أفعل ذلك اصطدمت برجل يسير في الجهة المضادة، فأبديت له أسفي كما تمتم هو ببضع كلمات لم أتبيّنها جيّداً، ثم أخرج من جيبه بطارية أضاءها وناولها لي، وعندئذ رأيته بوضوح. لقد كان رجلاً قصير القامة متين البنيان، ولكنني أعدت إليه البطارية وأنا أقول: سوف أجد الطريق الآن.

ولكنه قال: لا، أرجو أن تحتفظ به حتى نصل إلى الطريق العام.

- وأنت؟ ألست ذاهباً إلى البيت؟

- إنني أسير في نفس الطريق الذي تسير فيه.

وسرنا جنباً إلى جنب وقد بدا عليه الارتباك، ويبدو أنه أراد أن يبرّر لي موقفه لأنه أخذ يقول: إنني أقيم في بورنموث، ولكنني لم أنتقل إليها إلا منذ وقت قصير. أنا صيدلي واسمي أوسبورن،

زاكاريوس أوسبورن.

ثم تنهّد وهزّ رأسه قائلاً: إذن هذا هو بيت السيد فينابلز، أظنه من أصدقائك يا سيد...

- إيستربروك، مارك إيستربروك. في الحقيقة هو ليس صديقاً لي بمعنى الكلمة، فأنا لم أرَه غير مرة واحدة قبل اليوم مع بعض الأصدقاء.

- لا أريد أن تظن بي الظنون. نعم، لقد اقتحمت بيت رجل غريب عنّي، ولكنني أؤكّد لك أنه لم يدفعني إلى ذلك إلا مجرّد الفضول. إن موقفي يبدو غريباً لا مبرّر له ولكنني سأحاول أن أوضّح لك الأمر، ولكن قبل ذلك يوجد مقهى صغير على مقربة من موقف الحافلات، أما الحافلة نفسها فلن تأتي قبل عشرين دقيقة، فاسمح لي أن أقدّم لك كوباً من القهوة.

فقبلت دعوته، وعندما بلغنا المقهى جلس أوسبورن أمامي وروى لي كل ما سبق أن عرفته من كوريغان أو من ليغون عن مصرع الأب غورمان ودوره في هذه القصة، ثم استطرد قائلاً: وقد أقبل المفتش ليغون إلى بورنموث بناءً على خطابي، ثم أخبرني أن السيد فينابلز مشلول منذ سنوات نتيجة لإصابته بمرض الشلل وأنني لا شك رأيت شخصاً آخر يشبهه شبهاً غريباً.

وصمت أوسبورن عن الكلام فجأة عندما غمست شفتي بحذر في المشروب الذي جيء به لي وقلت: يبدو أن هذا ينهي الموضوع.

ولكن أوسبورن هزّ رأسه وقال بلهجة اليقين: إطلاقاً. لقد رأيته هو بعينه ولم أرَ رجلاً آخر. صحيح أنها كانت ليلة شديدة الضباب

وأنني كنت واقفاً على مسافة كبيرة، ولكن رجال الشرطة لا يفهمون أنني عالِم في الفراسة وأنني سريع الملاحظة. لقد رأيت الملامح والأنف الغريب وتفاحة آدم، وما زلت أؤمن أنني لم أخطئ وأنني رأيت فينابلز بنفسه، ولكن المفتش ليغون يقول إن هذا محال.

- إنه محقّ في قوله هذا؛ فإن الرجل مشلول ومن الصعب تصنّع الشلل.

فألقى أوسبورن نظرة إلى ساعته وقال: إن الحافلة على وشك الوصول. مهما يكُن فقد كنت أتساءل كيف أستطيع إثبات شهادتي، فرأيت أنني ربما أستطيع أن أفاجئ السيد فينابلز وهو يسير في حديقة قصره مثلاً أو أن أراه من خلال ستائر النوافذ في وقت يعتقد فيه أنه في مأمن من الأعين فيذرع أرض مكتبه جيئة وذهاباً.

- ولكن لماذا تؤمن أن الرجل الذي رأيته في تلك الليلة هو فينابلز نفسه؟

- لأنني أعرف أنه هو.

وهبّ السيد أوسبورن واقفاً على قدميه وهو يقول: لقد أقبلت الحافلة. يسرّني أنني التقيت بك أيها السيد العزيز، وإنني أشعر أنني أرحت ضميري شيئاً ما إذ برّرت لك سبب وجودي في بريو كورت.

وفي تلك اللحظة توقفت الحافلة أمام المحطة فأسرع السيد أوسبورن للحاق بها وهو يجري.

* * *

الفصل العشرون

(برواية مارك إيستربروك)

اتصلت بجنجر في اليوم التالي كي أخبرها أنني سأنتقل إلى بورنموث في صباح الغد وقلت لها: لقد اهتديت إلى فندق صغير لا أدري لماذا أطلقوا عليه اسم «جنة الوعول»، وله بابان خلفيان أستطيع الخروج من أحدهما كي ألقاك دون أن يراني أحد.

- هذا محظور عليك تماماً، ولكنني أعترف بأن هذا سوف يسرّني. إنني أشعر بضيق شديد، وإذا لم تستطع أنت المجيء فسأسرع أنا إليك في أي مكان.

فتملّكني الخوف فجأة وصِحت قائلاً: جنجر، إن صوتك ليس طبيعياً.

- أنا على ما يرام فاطمئنّ.

- ولكن صوتك...

- إنه مجرّد تعب بسيط في حنجرتي، وهذا كل شيء.

- جنجر.

- ما الأمر يا مارك؟ إن كل امرئ معرّض للإصابة بالتهاب الحنجرة، ولا ريب أنني أُصبت بنزلة برد أو بالإنفلونزا.

- الإنفلونزا؟ ردّي عليّ، هل تظنين أنها الإنفلونزا حقاً؟

- ربما. إنني أشعر بالألم في كل مكان من جسدي، وأنت تعلم إحساس المرء في مثل هذه الحالة.

- وماذا عن حرارتك؟

- لا شك أنها مرتفعة قليلاً.

فاضطُررت إلى أن أجلس وقد تجمّدت أطرافي وامتلأ فؤادي رعباً لأن جنجر لا تريد التسليم بما فزعت منه، ولكن بدا عليها الخوف هي الأخرى وكنت واثقاً من ذلك.

- مارك، لا تنزعج؛ فلا يوجد أي شيء حقاً.

- ربما، ولكن يجب اتخاذ كل الاحتياطات. استدعي طبيبك وقولي له أن يفحصك حالاً دون أن يضيع دقيقة واحدة.

- حسناً، ولكنه سيراني فتاة حمقاء تخاف من أي شيء.

- فليعتقد ما شاء، المهمّ أن تستدعيه فوراً.

ثم أعدت السمّاعة وجلست أحدّق إلى الهاتف دون أن أراه، وقلت لنفسي: لا يجب أن يتملّكني الفزع؛ فالإنفلونزا منتشرة في هذا الوقت من السنة، وسوف يطمئنها الطبيب، ولعل الأمر لا يعدو مجرّد برد بسيط.

وتخيّلت سيبيل وثوبها المتعدد الألوان، كما سمعت صوت تيرزا القوي يرنّ في أذني، وبيللا تترنم بأناشيد الموت، فقلت في نفسي: سخف، كل هذا سخف وخرافة. لكن هل للصندوق قدرة علمية لا تُقهر؟ هذا محال.

وأقبلت السيدة دين كالتروب فوجدتني جالساً في نفس المكان

أحدق إلى الهاتف فسألتني قائلة: ما الأمر؟

- جنجر مريضة.

وانتظرت كي أسمعها تطمئنني ولكنها قالت: هذا أمر بالغ السوء.

- ولكن هذا ليس ممكناً، ليس من الممكن أن يكونوا قد فعلوا ما يقولون!

- أحقاً؟

- أنت لا تصدّقين هذه الأمور، أليس كذلك؟

- عزيزي مارك، لقد سلّمت أنت وجنجر بهذا الاحتمال، وإلا ما حاولتما الإقدام على هذه التجرِبة. ومرض جنجر قد أتاكما بالدليل الآن.

فكرهتها فجأة وصِحت قائلاً: لماذا تتكلّمين بمثل هذا التشاؤم؟ إن الأمر لا يعدو مجرّد برد بسيط، فلماذا تظنين أسوأ الأمور؟

- لأنه إذا كان السوء بمثل ما كنا نتوقع فلا بدّ من مواجهته لأننا لو أغمضنا أعيننا فلن نستطيع التغلّب عليه.

- هل تظنين أن كل هذه الشعوذة قد أثمرت؟

- لا، ولكن شيئاً ما قد أثمر، وهذا ما يجب علينا مواجهته. أعتقد أن جزءاً كبيراً مما حدث فيه من الشعوذة الكثير، ولكن الباقي يخفي شيئاً مخيفاً لا بدّ لنا من معرفته.

- ولكن ما هو؟ ما هو؟ يجب أن يفحص رجال الشرطة ذلك الصندوق اللعين!

- يجب أن تكون لديهم الأدلّة التي تعطيهم حق التدخّل.

- وماذا يحدث إذا ذهبت أنا وحطّمته؟

- هذا لن يغيّر شيئاً، فإذا كان قد حدث شيء، استناداً إلى ما رويته لي، فلا بدّ أنه قد حدث في الليلة الماضية.

فأخذت رأسي بين يدي وتأوّهت وقلت: لماذا قمت بكل هذا؟ لماذا؟

فقالت السيدة كالتروب بثقة: لأنه كانت لديك أسباب وجيهة لذلك، وما فات قد فات، وسوف نعرف الكثير عندما تتكلّم جنجر. أظن أنها ستتصل بك عند رودا.

وبعد ساعتين اتصلت جنجر بي وقالت: لقد أقبل الطبيب وبدا عليه الانزعاج، ولكنه يعتقد أن الأمر يتعلق بالإنفلونزا فعلاً. وقد كتب لي أدوية كثيرة وأمرني بملازمة الفراش، وما زالت حرارتي مرتفعة ولكن هذا أمر عادي عند الإصابة بالإنفلونزا، أليس كذلك؟

فشعرت بالخوف الكامن في نبرات صوتها فقلت بلهجة يُرثى لها: سيكون الأمر على ما يرام. هل تسمعينني؟ هل تشعرين بألم؟

- نعم، إن حرارتي مرتفعة، كما أن جسدي يؤلمني، ولن أستطيع احتمال أية لمسة. إن حرارتي مرتفعة جداً.

- إنها الحمّى يا عزيزتي. استمعي إليّ، إنني قادم كي أراك، قادم فوراً. لا، لا داعي للاحتجاج.

- حسناً، يسرّني أنك قادم يا مارك، وأظن أنني لست على

درجة عالية من الشجاعة كما كنت أعتقد.

* * *

اتصلت بالمفتش ليغون هاتفياً وقلت له: إن الآنسة كوريغان مريضة.

- ماذا؟

- لقد سمعتني جيّداً. إنها مريضة، ويقول طبيبها إنها الإنفلونزا، ولكن قد لا يكون الأمر كذلك، ولا أدري ماذا نستطيع أن نفعل. إن الفكرة الوحيدة التي تدور في رأسي هي أن أعهد بها إلى اختصاصي.

- أي نوع من الاختصاصيين؟

- طبيب نفسي، أو عالِم نفسي، أو دكتور متخصص في علم الأرواح، أو سمِّه ما شئت، المهم أن يكون شخصاً عالماً بكل شيء عن التنويم المغناطيسي والإيحاء وغسيل المخّ. هل لمثل هذا الشخص وجود؟

- طبعاً، لا ريب أنك على حق. يا إلهي! لعلنا اهتدينا إلى ما كنا نرجو الاهتداء إليه يا إيستربروك.

ووضعت السماعة مكانها بعنف، ولم يكُن يوجد سوى شيء واحد هو الذي يستأثر باهتمامي، ألا وهو جنجر، جنجر الشجاعة والخائفة في نفس الوقت. لقد أقحمت نفسي وأقحمتها في لعبة غريبة لم نكُن نعتقد أنها ستؤدي بنا إلى هذه النتيجة، وهكذا أثبت الحصان الأشهب قوّته وجبروته. رحماك يا إلهي!

* * *

الفصل الحادي والعشرون

(برواية مارك إيستربروك)

لا أظن أنني أستطيع أن أنسى ما حييت الأيام التي تلت ذلك، فقد نُقلت جنجر إلى عيادة خاصة ولم يُسمح لي برؤيتها إلا في أوقات الزيارة العادية. ولم يدرك طبيبها الخاص سبب الأهمية التي كنا نوليها بها، فأخذ ينظر إلينا كما لو كنا لا نفهم تشخيصه العادي للإنفلونزا المصحوبة بارتفاع في درجة حرارة الجسم. أخذ ينظر إلينا وكأننا نعتقد أنه أخطأ في تشخيص الداء، فكان يقول: إن الإنفلونزا مرض عادي يقع في كل وقت، وبعض الناس لا يستطيعون مقاومته.

وكان على حقّ فيما يقول طبعاً؛ فقد كانت كل الظواهر تدلّ على أن جنجر مصابة بإنفلونزا حادة، ولم يكُن يوجد غموض حول العلّة التي تشكو منها وإنما كانت مصابة بالإنفلونزا، وهذا كل شيء.

وأخذ الطبيب يلقي عليّ أسئلة كثيرة لم ألاحظ السبب الذي يهدف إليه من ورائها، وكان يهزّ رأسه كلّما أجبته كمن يستوعب الردّ، وقد أبى أن يدلي بأي رأي حتى لا يُظهِر جهله، وأظنه كان حكيماً في هذه الناحية، وأعتقد أنه حاول أن يقوم بتنويم جنجر

تنويماً مغناطيسياً، ولكن يبدو أن الجميع أجمعوا على عدم إطلاعي على شيء، ولعل ذلك لأنه لم يكُن لديهم ما يخبرونني به.

وعندما تملّكني اليأس أخيراً اتصلت ببوبي وسألتها إذا كانت تقبل أن تتناول العشاء معي فأجابتني بالقبول، وفي أثناء الطعام سألتها إن كانت تذكر صديقتي جنجر، فاتسعت عيناها وصاحت قائلة: طبعاً أتذكّرها.

ثم سألتني قائلة: ماذا تفعل الآن؟

فأجبتها قائلاً: إنها مريضة.

فقالت وهي تتظاهر بالاهتمام: يا لها من مسكينة!

- لقد أقحمت نفسها في أمر غريب، وأعتقد أنها سألتك النصح قبل أن تقحم نفسها فيه. لقد كان ذلك بخصوص الحصان الأشهب.

فصاحت بوبي وقد ازدادت عيناها اتساعاً وقالت: آه! إذن فقد كنت أنت...

فبقيت صامتاً لحظة وأنا لا أفهم ما تعنيه، وفجأة خطر لي أن بوبي تعتقد أنني ذلك الرجل الذي تقف زوجته الكسيحة حجر عثرة في سبيل سعادة جنجر، وقد استولى عليها الانفعال إزاء هذا الاكتشاف إلى درجة أنها نسيت أن تتظاهر بالخوف عند ذكر عبارة الحصان الأشهب، ثم همست باهتمام قائلة: هل نجحت الخطة؟

فأجبت وقد رضيت بالدور الذي نسبته إليّ قائلاً: نعم، ولكن يبدو أن النتيجة قد جاءت عكسية؛ فقد انقلبت ضدّ جنجر. هل سمعت أن شيئاً كهذا قد حدث من قبل؟

– لا، ولكن من المفترض أن زوجتك هي التي كان يجب أن تقع مريضة وتموت!

– تماماً، أنت تعرفين أن جنجر هي التي قامت بكل الإعدادات اللازمة ولم أقُم أنا بأي إجراء، فهل يوجد أحد أستطيع الاتصال به؟

فأجابت الفتاة بشيء من الشكّ قائلة: يوجد مكان في برمنغهام.

فقلت: إن المكتب مغلق. ألا تعرفين شخصاً آخر على علم بهذا الأمر؟

– ربما كانت إيلين براندون تعرف شيئاً ما، وإن كنت أشك في هذا.

– وما علاقتها بالحصان الأشهب؟

– ليس لها أية علاقة، وإنما هي فكرة خطرت لها، ولهذا استقالت.

فسألتها بشيء من الحيرة: استقالت؟!

– نعم، من شركة «ك. ر. ك»، وهي شركة صغيرة تقوم بعمل الإحصائيات الخاصة باستهلاك المواد التموينية.

– وما العمل الذي كانت تقوم به إيلين براندون في هذه الشركة؟

– كانت تمرّ على العملاء وتلقي عليهم الأسئلة، ولا شيء أكثر من هذا. وكانت الأسئلة تدور حول المواد المستعملة كمعاجين الأسنان والصابون ونوع الإسفنج وما أشبه ذلك، وهو عمل يثير

الضيق والتبرّم ولا يهتمّ به أحد.

- ولكن الشركة كانت تهتمّ به طبعاً.

وخامرني إحساس غريب لأن المرأة المحتضَرة التي استدعت الأب غورمان في الليلة التي لقي فيها مصرعه كانت تعمل في شركة مماثلة، ولعلها نفس الشركة، وقد زارت جنجر امرأة تعمل في نفس الشركة. ثم سألت بوبي قائلاً: لماذا استقالت؟ ألم يعجبها عملها؟

- لا أعتقد ذلك. لقد كانوا يدفعون لها راتباً كبيراً، ولكنها تصوّرت أن عملها يخفي وراءه شيئاً آخر و...

فقاطعتها قائلاً: هل خطر لها أن لعملها صلة بالحصان الأشهب؟

- لا أدري، ربما، ومهما يكُن فهي تعمل الآن في مقهى بتوتنهام في كورت رود.

ثم ذكرت لي عنوانها، ولما لم تكُن تعرف شيئاً آخر فقد تركتها بعد أن شكرتها على تلك السهرة اللطيفة.

* * *

حاولت الاتصال بليغون هاتفياً في صباح اليوم التالي، ولكن محاولاتي ذهبت أدراج الرياح، وعندما وجدت ذلك اتصلت بكوريغان وقلت له: ما خبر ذلك الطبيب النفسي الذي فحص جنجر؟ ماذا يقول؟

- لقد قال أشياء كثيرة، ولكن إذا أردت رأيي فإنه في حيرة من أمره، ولعلك تعلم أن أناساً كثيرين يصابون بنزلات شعبية وليس

في هذا أي غموض.

- أجل، وكذلك ظهرت أسماء أناس كثيرين في القائمة وقيل إنهم ماتوا بسبب نزلة شعبية أو عسر هضم أو حمّى شوكية أو أمراض أخرى عادية.

- أنا أدرك شعورك، ولكن ماذا نستطيع أن نفعل؟

- إن حالتها تزداد سوءاً، أليس كذلك؟

- بلى.

- إذن يجب أن نفعل شيئاً. ما رأيك في أن نذهب إلى ماتش ديبنغ ونرغم تيرزا غراي على قلب الأوضاع بأي طريقة؟

- أنا موافق، ويمكننا أن نصل إلى نتيجة بهذه الوسيلة.

- وأستطيع كذلك أن أمضي إلى فينابلز و...

فقاطعني قائلاً: فينابلز؟ ولكنه لا شأن له بهذا، إنه رجل عاجز.

- أتمنى أن أسرع إليه فأنتزع الغطاء كي أرى ساقَيه الهزيلتين.

- لقد تحرّينا عن هذه الناحية.

- مهلاً، لقد التقيت بذلك الصيدلي المدعو أوسبورن في ماتش ديبنغ، وأريد أن أفضي إليك بما رواه لي.

ثم نقلت إليه حديث أوسبورن واعتقاده بأن فينابلز هو الرأس المدبّر فقال: هذا جائز؛ فهو رجل خارق الذكاء، ولكنني أظنه ليس من الغباء إلى درجة أن يسير خلف الأب غورمان ويقتله بنفسه،

هذا إذا فرضنا أنه ليس مشلولاً.

وعندئذ تذكّرت أمر إيلين براندون وتذكّرت أن لديّ موعداً معها في أحد المقاهي في بتوتنهام كورت رود، فوضعت السماعة مكانها. وكنت قد بلغت الباب عندما رنّ جرس الهاتف من جديد فوقفت متردّداً وقلت لنفسي: لا ريب أن جيم كوريغان يطلبني مرة أخرى ليستزيدني إيضاحاً.

ولم تكُن بي أية رغبة في التحدّث معه من جديد، وأخذ الجرس يرنّ دون انقطاع فقلت: لعله المستشفى... جنجر.

ولم أشأ المخاطرة فأسرعت إلى الهاتف وتناولت السماعة وقلت: مرحباً.

- أهذا أنت يا مارك؟

- نعم، مَن التي تتكلّم؟

فأجابت صاحبة الصوت بلهجة العتاب: أنا طبعاً. استمع إليّ، عندي شيء لك.

وعرفت صوت السيدة أوليفر فأسرعت قائلاً: آه، أهذه أنت؟ أنا في عجلة من أمري. لقد كنت أهمّ بالخروج، سأتصل بك فيما بعد.

- لا، لا، استمع إليّ فالأمر هام. إن خادمتي ميللي أُصيبت بالتهاب اللوزتين، وقد تفاقمت حالتها فذهبت إلى أختها في الريف و...

فضغطتّ على أسناني وقلت مقاطعاً: أنا آسف، إنني في عجلة من أمري حقاً.

- استمع إليّ، إنني لم أبدأ بعد. لقد كانت ميللي مريضة فذهبت إلى الريف، ولهذا اتصلت بمكتب التخديم فقيل لي إن من الصعب الحصول على خادمة في هذا الوقت بالذات وإنهم سيبذلون قصارى جهدهم.

ووددت لو أستطيع أن أخنقها في تلك اللحظة، ثم قالت: وأخيراً جاءتني امرأة هذا الصباح. أتعرف مَن؟

- وكيف أعرف ذلك؟ أؤكد لك...

فقاطعتني قائلة: أنت تعرفها جيّداً، إنها أديث بينز.

- لا أعرفها إطلاقاً، إنني لم أسمع عنها قبل اليوم.

- بل تعرفها، ثم إنك رأيتها مؤخّراً. لقد لبثت سنوات طويلة في خدمة السيدة هسكس ديبوا، وقد حدّثتني كثيراً عن مرض هذه الأخيرة وقالت...

فقلت بسرعة: ماذا قالت؟

- قالت شيئاً أثار اهتمامي، قالت: "يا للمرأة المسكينة! كم تألمت! مع أنها كانت بكامل صحّتها قبل أن يصيبها هذا الورم الخبيث في رأسها. وكم أحزنني أن أرى شعرها الأبيض الجميل الغزير يتساقط من تلقاء نفسه فوق الوسادة"، وعندئذ تذكّرت ماري ديلا فونتين؛ فهي الأخرى قد تساقط شعرها، كما تذكّرت تلك الفتاة التي قلت لي إنها تشاجرت مع غريمة لها في مقهى شلسي وإنها انتزعت قبضة من شعرها بسهولة. إن الشعر لا يُنتزَع بمثل هذه السهولة يا مارك، حاول أن تنتزع خصلة من شعرك كي ترى. ليس هذا بالأمر الطبيعي، ولا ريب أنه مرض جديد، فهل يعني ذلك شيئاً بالنسبة إليك؟

ودار رأسي وأنا ممسك بالسماعة وهاجمتني صور وذكريات، صورة رودا وهي تُعنى بكلابها في فِناء بيتها، وصورة مقال كنت قد قرأته في إحدى المجلات الطبية التي تصدر في أمريكا. نعم، هو ذلك. ثم أدركت أن السيدة أوليفر لا تزال تتكلّم في الهاتف فقلت: باركك الله، كم أنت رائعة!

وأعدت السمّاعة من جديد، ثم رفعتها للمرة الثالثة. وقد خدمني الحظ تلك المرة؛ فقد ردّ عليّ ليغون بنفسه فسألته قائلاً: قل لي، هل يتساقط شعر جنجر؟

- نعم، وبغزارة، وذلك بسبب الحمّى بلا شك.

- أية حمى يا صاحبي؟ إن جنجر مصابة بما أُصيب به الجميع. إنها مصابة بالتسمّم بسمّ التاليوم. أرجو أن نستطيع إنقاذها قبل أن يسبق السيف العذل.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

(برواية مارك إيستربروك)

- هل وصلنا في الوقت المناسب؟ هل ستعيش؟

كنت أروح وأغدو كالمجنون ولا أستطيع البقاء في مكان واحد، وكان ليغون جالساً ينظر إليّ بصبر ثم قال برفق: ثِق أننا نبذل كل ما في وسعنا.

إنهم يقولون نفس القول دائماً. ثم قلت وأنا لا أشعر بأي اطمئنان: هل تعرفون كيف تعالجون سمّ التاليوم؟

- هذه حالة لم يسبق لنا معالجتها، ولكننا نبذل كل ما في وسعنا، وأعتقد أننا سننقذها.

فنظرت إليه وأنا أتساءل قائلاً: هل تؤمن حقاً بما تقول أم أنك تحاول أن تطمئنني؟ هل تأكّدتم من أنه سمّ التاليوم؟

- نعم، لقد تأكّدوا من ذلك.

- هذه هي حقيقة الحصان الأشهب إذن، السمّ. لا يوجد سحر ولا تنويم مغناطيسي ولا أرواح ولا أشعة موت، وإنما هو السمّ. وقد ألقت هذه الحقيقة في وجهي. لعنها الله، ألقتها في وجهي وهي تضحك من قلبها!

- مَن تعني؟

- تيرزا غراي، فعندما رأيتها بعد ظهر ذلك اليوم الذي ذهبت فيه لتناول العشاء لديها تحدّثت عن آل بورجيا وعن السموم الخفية التي كانوا يستعملونها دون أن يظهر لها أثر، وكذلك القفازات المسمومة وغيرها مما اشتهروا به، كما قالت إنهم كانوا يستعملون الزرنيخ الأبيض ولا شيء غير ذلك. أما كل الإخراج المسرحي، مثل الغيبوبة والصندوق... كل هذا لم يكُن إلا من أجل التأثير على ذوي العقول البسيطة الذين يؤمنون بالخرافات. ذلك الصندوق ليس أكثر من مجموعة معقدة من الأسلاك الكهربائية والمصابيح الملوّنة، ولو أن أحداً فحصه لتحقق من أنه صندوق بريء لا يمكن أن يؤذي أحداً، ولو أنها سيقت إلى المحكمة لما استطاع أحدٌ إدانتها بشيء.

- هل تعتقد أنها متواطئة مع المرأتين الأخريين؟

فأجبت قائلاً: لا أظن. إن إيمان بيللا بهذه الأشياء صادق، وكذلك سيبيل، فهي تروح في غيبوبة حقاً ولا تدري شيئاً مما يدور حولها وتصدّق كل ما تقوله تيرزا بعد ذلك.

- إذن فتيرزا غراي هي العقل المدبّر.

- هي العقل المدبّر فيما يتعلق بالحصان الأشهب فحسب، ولكنها ليست العقل المدبّر الذي يمسك بكل الخيوط. إن العقل المدبّر الحقيقي يعمل في الخفاء، وهو الذي يرسم الخطط ويدبّر كل شيء. إنها عصابة منظمة أحكم هو تنظيمها، كل فرد في مكانه يقوم بالدور المرسوم له ولا شيء أكثر من ذلك، فبرادلي يهتمّ بالناحية المالية ولا يعرف ما يدور خارج مكتبه ويتقاضى نظير ذلك أجراً سخياً، وكذلك الحال مع تيرزا غراي.

- ما الذي هداك إلى التفكير في سمّ التاليوم؟

- أشياء كثيرة متفرّقة تجمّعت فجأة، أوّلها تلك الفتاة التي تشاجرت في شلسي مع فتاة أخرى انتزعت خصلة من شعرها وادّعت أنها لم تشعر بأي ألم. لم يكُن هذا شجاعة منها كما اعتقدت لأنها لم تشعر بأي ألم حقاً. وكنت قد قرأت في أثناء إقامتي في أمريكا مقالاً عن التسمّم بسمّ التاليوم، وكان عمّال أحد المصانع يموتون الواحد بعد الآخر بأعراض كثيرة مختلفة، مثل التيفود والسكتة القلبية والتهاب الأعصاب والشلل والصرع وعسر الهضم وخلافه. كما قرأت مقالاً آخر عن امرأة دسّت السمّ لسبعة أشخاص ظهرت عليهم أعراض تورّم المخّ وأوجاع الرأس والتهاب الرئتين، وكانت الأعراض تختلف ولكن كان يصحب كلاً منها قيء وإسهال شديدان وآلام في أطراف الجسم، وهي نفس أعراض التهاب الأعصاب والشلل والإنفلونزا. شيء واحد كانوا يحرصون عليه في حالتنا هذه، وهو أن لا يشتبه أحد في أن الموت يقع نتيجة للتسمم.

فهزّ ليغون رأسه وقال: تماماً، وهذا هو السبب في إصرار «الحصان الأشهب» على أن يقيم العميل بعيداً عن ضحيته حتى يكون في مأمن من تناول أي طعام أو شراب قد دُسّ فيه سمّ التاليوم، وهذا هو جمال الموضوع كما قال برادلي. إن العمل الحقيقي يقوم به شخص آخر لا صلة له بالضحية، شخص أعتقد أنه لا يظهر على المسرح إلا مرة واحدة ثم يختفي بعدها.

وصمت لحظة ثم قال: هل لديك فكرة عمّن يكون ذلك الشخص؟

- نعم، في كل مرة تظهر امرأة ، امرأة بريئة المظهر معها قائمة

بأسئلة عن استهلاك المواد التموينية العادية.

- وهل تظن أن تلك المرأة هي التي تدسّ السمّ؟

- لا أظن ذلك، أنا أعتقد أن تلك امرأة بريئة كما قلت وأن دورها لا يتعدى إلقاء الأسئلة، ولكنها تقوم بدور حيوي في هذه القضية. ربما عرفنا شيئاً إذا استجوبنا إيلين براندون التي تعمل في مقهى بتوتنهام كورت رود.

* * *

كان الوصف الذي ذكرته بوبي عن إيلين براندون لا يعبّر عن الحقيقة؛ فقد كان شعرها المتموج لا يدلّ على أن يد التمشيط امتدت إليه منذ مدة طويلة، كما كانت تضع طبقة خفيفة من الأصباغ فوق وجهها وتلبس حذاءً عادياً. وقد قالت لنا إن زوجها مات في حادث سيارة تاركاً لها طفلين صغيرين، وكانت تعمل بشركة للإحصاء قبل أن تلتحق بذلك المقهى، ولكنها تركت عملها بتلك الشركة من تلقاء نفسها لأن العمل لم يعُد يريحها، فسألها ليغون قائلاً: ولماذا لم يعُد يريحك يا سيدة براندون؟

فتفرّسته ثم سألته قائلة: أنت من رجال الشرطة، أليس كذلك؟

- بلى، هذا صحيح.

- هل تظن أنه يوجد شيء ضد تلك الشركة؟

- أنا أتحرّى عن هذا الأمر يا سيدتي، ولكن هل تركت العمل لأن شكوكاً ما ساورتك؟

- لقد خامرني شعور بأن أشياء لا أعرفها تدور في الخفاء.

- هل تعنين أن الشركة تُعتبر ستاراً يخفي وراءه شيئاً ما؟

- هو كذلك تقريباً. لقد كان يخيّل إليّ أنها تخفي وراءها شيئاً آخر.

وصمتت برهة ثم استطردت قائلة: إن عملي كان مقصوراً على زيارة أشخاص تذكرهم لي الشركة وتمدّني بعناوينهم لإلقاء أسئلة معيّنة عليهم وتدوين إجاباتهم، ولكن الغريب أن الشركة لم تذكر لي ما هو المطلوب منّي بالضبط! وهذا هو وجه الغرابة في الموضوع، ولم يقُل لنا أحد ذلك قطّ. وكان المفروض أن تفيد هذه الإجابات بعض المصانع، ولكن لم يكُن يوجد أي تنسيق، وكان يبدو أن القائمين على هذا العمل من الهواة.

- هل تظنين أن بين الأسئلة سؤالاً يخفي وراءه شيئاً ما؟

فأجابت إيلين وهي تفكّر: نعم، وهذا يفسّر عدم منطقيتها، ولكنني لا أدري ما هو هذا السؤال.

ابتسم ليغون وقال: أنا موقن أنك لم تذكري لنا كل شيء.

- هذا صحيح، ولكنني لا أدري حقاً. إنه مجرّد إحساس، وقد تحدّثت في ذلك مع السيدة دافيس و...

- السيدة دافيس؟!

ألقى ليغون سؤاله بهدوء وصبر كبيرَين، فردّت إيلين براندون تقول: هي الأخرى لم تكُن راضية عن ذلك العمل.

- لماذا؟

- لأنها سمعت شيئاً مصادفة.

- وما هو؟

- قلت لك إنني لا أعرف شيئاً بعينه، ولكن المسألة كانت تبدو غير منطقية. فقد قالت لي: "يخيّل إليّ أن العمل الذي تزاوله الشركة مشبوه وغير شريف، ولكن هذا لا يعنينا على كل حال؛ فهم يدفعون لنا بسخاء ولا يطلبون منا القيام بعمل لا يقرّه القانون، ولا أرى داعياً إلى أن نزعج أنفسنا"، كما قالت لي ذات مرة: "يخيّل إليّ أنني أجلب النحس".

فأخرج ليغون ورقة من جيبه ناولها إياها وسألها قائلاً: هل تعني هذه الأسماء شيئاً بالنسبة إليك؟

- لقد ذهبت إلى أشخاص كثيرين.

ثم أخذت الورقة وألقت نظرة إليها وقالت: أورميرود؟ لقد حدّثتني السيدة دافيس عنه فقالت إنه مات فجأة بنزيف في المخّ وقد أحزنها موته كثيراً، كما قالت لي: "إن اسمه في القائمة التي أُعطيت لي، وقد ذهبت إليه منذ خمسة عشر يوماً وكان متمتعاً بكامل صحّته. لعمري يكفي أن ألقي نظرة على الناس كي يلقوا حتفهم". كانت تضحك وهي تقول ذلك، ولكن الفكرة كانت تؤرقها، وكان هذا واضحاً.

- أهذا كل شيء؟

- لا، لقد التقينا فيما بعد، ولم أكُن قد رأيتها منذ وقت طويل، فقلت لها إنني سأترك الشركة كي أعمل في مكان آخر فقالت لي: "لعلك على حق، ولكنهم يدفعون لنا بسخاء، ثم إن العمل هيّن سهل. يجب أن يجرّب الإنسان حظه في الحياة، ولن أعيش طويلاً، فلماذا أزعج نفسي بما يقع لغيري؟". ولم أفهم شيئاً من قولها هذا، ولما طلبت منها إيضاح الأمر قالت: "أنا لست واثقة، ولكنني رأيت منذ أيام رجلاً أعرفه يغادر بيتاً ليس له فيه أي

عمل، وهو يحمل أدوات مما يحملها العمّال، وأودّ أن أعرف ماذا كان يفعل في هذا البيت"، وقد سألتني أيضاً إن كنت قد التقيت بامرأة تدير مقهى اسمه الحصان الأشهب. ولم أرَها بعد ذلك، ولا أدري إن كانت لا تزال تعمل بتلك الشركة أم إنها قد غادرتها.

فقال المفتش ليغون: السيدة دافيس ماتت بالتهاب رئوي منذ شهرين.

- آه، هذا أمر محزن.

ثم قال ليغون يخاطبني بعد أن غادرنا المقهى: إن أقوالها لم تقدّم لنا الكثير. يبدو أن السيدة دافيس قد راودتها الشكوك فيما يدور حولها، وقد أغلقت عينيها في بادئ الأمر ولكنها عندما وقعت فريسة للمرض اعترفت للكاهن بشكوكها. ولكن الشيء الذي يهمّنا الآن هو ذلك الرجل الذي رأته يغادر بيتاً لا عمل له فيه وهو متنكّر في زي عامل، فما دامت السيدة دافيس قد عرفت ذلك الرجل فلا ريب أنه عرفها هو الآخر ورأى أنها أصبحت تشكّل خطراً عليه، ولذلك كان لا بدّ أن تختفي وأن يختفي معها الأب غورمان الذي أطلعته على كلّ شيء.

فقلت: وهل لديك فكرة عمّن يكون ذلك الرجل؟

- نعم، ولكن...

فقلت: أعرف، ينقصنا الدليل.

لزم ليغون الصمت لحظة ثم نهض قائلاً: سوف نحصل على ذلك الدليل. نحن لا تنقصنا الوسائل، وسوف نفعل كل شيء.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

(برواية مارك إيستربروك)

بعد ثلاثة أسابيع وقفت سيارة أمام الباب الحديدي لقصر بريو كورت نزل منها أربعة رجال كنت أنا واحداً منهم، أما الثلاثة الآخرون فهم المفتش ليغون والشرطي لي والسيد أوسبورن الذي لم يتمكّن من إخفاء سروره بانضمامه إلينا، فقال المفتش ليغون يحذّره: يجب أن تمسك لسانك.

- طبعاً أيها المفتش، يمكنك أن تعتمد عليّ تماماً، ولن أنطق بكلمة واحدة.

- أرجو ذلك.

- إنه امتياز كبير، أعرف ذلك، ولكنني لا أفهم ذلك تماماً.

ولكن أحداً لم يحاول أن يقدّم له تفسيراً. ثم ضغط ليغون الجرس وطلب مقابلة السيد فينابلز، وقد دهش هذا الأخير من زيارتنا إلا أنه لم يُبدِ شيئاً من ذلك وكان لطيفاً إلى درجة كبيرة، وعندما نظرت إليه وهو يبتعد بمقعده المتحرّك قليلاً ليزيد اتساع الحلقة التي بينه وبيننا رأيت أن له طابعاً خاصاً يميزه عن غيره من الناس، وهو تفاحة آدم الدائمة التحرّك وهو يتكلّم، وجانب وجهه المصعّر وأنفه الأشبه بمنقار النسر.

قال فينابلز: يسرّني أن أراك مرة أخرى يا سيد إيستربروك. أرى أنك تكرّس وقتك لهذا الجزء من العالَم.

وخطر لي أن بصوته رنة من الخبث، ثم استطرد قائلاً: أظن أنك المفتش ليغون. أعترف بأنني أشعر بشيء من الفضول، فماذا يفعل رجل من رجال الشرطة في مثل هذا المكان الهادئ الذي لا يعرف الجرائم؟ هل من خدمة أستطيع أن أؤدّيها لك أيها المفتش؟

فأجابه ليغون بهدوء قائلاً: يوجد موضوع أظنّ أنك تستطيع أن تعاوننا فيه يا سيد فينابلز.

- وما هو؟

- في السابع من أكتوبر قُتل كاهن كاثوليكي يُدعى الأب غورمان بشارع وست ببادنغتون، وقد سمعت أنك كنت في ذلك المكان في الوقت الذي وقعت فيه الجريمة، أي بين السابعة وخمس وأربعين دقيقة والثامنة والربع، فتوقّعت أن تكون قد رأيت شيئاً له صلة بهذه الجريمة.

- هل كنتُ في ذلك المكان في تلك الليلة حقاً؟ لا أعتقد ذلك؛ فأنا على ما أذكر لم أنتقل إلى تلك الناحية من لندن، بل إنني لا أظن أنني غادرت بيتي في ذلك اليوم لأنني لا أذهب إلى لندن إلا عندما يقام مزاد أو لأستشير طبيبي من وقت لآخر.

- أظن أن طبيبك المعالج هو السير ويليام ويغديل المقيم بهارلي ستريت، أليس كذلك؟

فرمى فينابلز المفتش ليغون بنظرة جافة وقال: أرى أنك تحرّيت الأمر أيها المفتش.

- ليس كما كنت أريد تماماً، ومع ذلك فقد كنت أتوقّع منك مساعدة أكثر من ذلك، ولكن أظن أنه يجب أن أذكر لك الظروف التي لقي فيها الأب غورمان مصرعه.

- أرجو ذلك، فهذه أول مرة أسمع فيها هذا الاسم.

- لقد استدعت امرأة تُحتضَر الأب غورمان في تلك الليلة التي نحن بصددها، وكانت قد اشتركت مع مؤسسة إجرامية دون وعي منها في بادئ الأمر، ولكن حقائق معيّنة لم تلبث أن جعلتها تشكّ في أمرها، وقد تخصّصت تلك المؤسسة في التخلّص من الأشخاص غير المرغوب فيهم نظير مبالغ كبيرة من المال كما هو مفهوم.

فقال فينابلز: ليست الفكرة جديدة، ففي أمريكا...

ولكن المفتش قاطعه قائلاً: وكانت تلك العصابة تستخدم وسائل خاصة يمكن أن نطلق عليها اسم «وسائل نفسية»، فهي تستغلّ الرغبة الكامنة في كل منا بالموت. والمركز الرئيسي لتلك العصابة في مكان معروف باسم «الحصان الأشهب».

- نعم، بدأت أفهم الآن. إذن هذا هو سبب قدومك إلى بلدتنا المحبوبة إذن، إنها صديقتي تيرزا غراي وسخافاتها. لم أستطع أن أعرف إذا كانت تؤمن بما تقول حقاً أم لا، ومهما يكُن فإنها لا تزيد عن كونها سخافات، كما أن صديقتها التي تقوم بعمل الوسيط غبية كالإوزة هي وساحرة القرية التي تطهو لهما الطعام، وإن دّل هذا على شيء فإنما يدلّ على شجاعة هذه الأخيرة. إن أولئك النسوة الحمقاوات اكتسبن سُمعة طيّبة في البلدة، ولكن لا تقُل إن اسكتلنديارد قد بلغ بها الأمر إلى حدّ الاهتمام بهنّ!

- بل هذه هي الحقيقة يا سيد فينابلز.

– هل تعتقد أن السخافات التي تصدر من تيرزا وغيبوبة سيبيل وسحر بيللا يمكن أن تتسبب في موت أحد؟

– بالطبع لا، إن سبب الموت أبسط من هذا.

وصمت لحظة ثم استطرد قائلاً: إن السبب هو سمّ التاليوم.

– ماذا تقول؟!

– سمّ التاليوم. إن الأمر بسيط جداً، ولكن كان لا بدّ من غطاء يخفون وراءه ذلك الأمر، ولم يكُن يوجد أحسن من غطاء العلم والأرواح والخرافات القديمة.

فقال فينابلز وهو يفكر: سمّ التاليوم؟ لا أظن أنني سمعت عنه قبل اليوم.

– أحقاً؟ إنه يُستخدم لقتل الفئران كما يُستخدم لإزالة شعر الأطفال المصابين بالقراع أحياناً، ويمكن الحصول عليه بسهولة. بالمناسبة، لقد عثرنا على كيس منه مخبأ في مكان ما من حديقتك.

– حديقتي؟ هذا محال!

– وقد قمنا بتحليل جزء منه.

– لا ريب أن شخصاً ما قد وضعه في ذلك المكان!

– أحقاً؟ أنت رجل واسع الثراء يا سيد فينابلز.

– وما صلة هذا بالموضوع؟

– أعتقد أن مصلحة الضرائب أبدت اهتمامها بثروتك.

– إن طريقة تحصيل الضرائب في إنكلترا لا تحبّب إليّ الإقامة

فيها، وأنا أفكّر جدّياً في الانتقال إلى جُزر برمودا.

- لا أعتقد أن في مقدورك الانتقال إليها في الوقت الحاضر يا سيد فينابلز.

- هل هذا تهديد أيها المفتش؟ فهو إذا كان كذلك...

فقاطعه المفتش قائلاً: لا، لا، إنه مجرّد إبداء رأي فحسب. هل تحب أن أخبرك كيف تقوم تلك العصابة بعملها؟

- أرى أنك عقدت النية على أن تقول لي ذلك.

- إنها عصابة منظمة بطريقة رائعة، حيث يوجد محام اسمه مشطوب من سجلّ المحامين يتكفّل بالناحية المالية، وله مكتّب في برمنغهام يستقبل فيه العملاء ويتفق معهم، والسيد برادلي، وهذا اسمه، يقبل المراهنة على أن شخصاً معيّناً سيموت في تاريخ معيّن، وهو رجل متشائم، فإذا ربح رهاناً فلا بدّ للعميل أن يدفع وإلا وقع له ما لا يحب. وبعد أن يتم التفاهم بين السيد برادلي والعميل فعلى هذا الأخير أن يذهب لزيارة تيرزا غراي التي تقدّم له منظراً مثيراً.

وابتسم المفتش ابتسامة خفيفة ثم استطرد قائلاً: ومن ناحية أخرى كانت توجد شركة تهتمّ بعمل الإحصائيات الخاصة بالمواد التموينية، وهي تستخدم سيدات بريئات لإلقاء أسئلة معيّنة عن الخبز ومستحضرات التجميل ومعاجين الأسنان وما أشبه، وهن يذهبن لإلقاء هذه الأسئلة على الأشخاص الذين تحدّدهم الشركة لهن. وبعد ذلك يدخل الزعيم إلى المسرح بنفسه متنكّراً إما في زيّ بوّاب أو مفتش عدّاد النور أو المياه أو سمكريّ أو كهربائيّ، ومهما يكُن من أمر فإنه يحرص على أن تكون معه أوراق تثبت شخصيته

إذا حدث وطلب أحدهم منه ذلك، وقلّما يقع هذا. وغرضه واضح بسيط وهو استبدال صنف معيّن بآخر يقع عليه اختياره طبقاً للردود التي حصلت عليها السيدة التي سبق له أن أرسلها لإلقاء الأسئلة، وبعد أن يتم مهمّته متظاهراً بفحص عدّاد النور أو المياه ينصرف ولا يراه أحد بعد ذلك. ولا شيء يحدث في بادئ الأمر، ولكن لا تلبث الفريسة أن تقع مريضة، ولا يفهم الطبيب المعالج شيئاً ويعتقد أن الأمر مجرّد مرض عادي. ولا أدري ما الذي يدعوه إلى أن يشتبه في صنف يستخدمه المريض منذ سنوات طويلة دون خطر! هل فهمت الآن كيف تُدبَّر الجريمة؟ ويبقى المحرّض في الظلام لا يعرفه أحد ولا يوجد مَن يستطيع كشف أمره.

- وكيف علمت بكل ذلك إذن؟

- إن لنا وسائلنا الخاصة، فنحن نتحرّى ونتحقق من كل شيء، ونبدأ من شكّ بسيط. ولننظر إلى آلة التصوير مثلاً، فمن السهل التقاط صورة لأي رجل دون أن يدري، وبهذه الطريقة تمكّنا من الحصول على صورة واضحة لبوّاب وأخرى لعامل من عمّال شركة الغاز. وتوجد شوارب مستعارة وأسنان صناعية، ولكن على الرغم من كل هذا يتمّ التعرّف بسهولة. وقد حدث هذا فعلاً، وقد عاونتنا في ذلك كاترين كوريغان، السيدة مارك إيستربروك سابقاً، والسيدة أديث بينز. والتعرف على الأشخاص أمر مثير ومهمّ جداً، فمثلاً إليك هذا السيد الواقف معنا، وأعني به السيد أوسبورن. إنه على استعداد أن يقسم أنه رآك تتبع الأب غورمان في شارع بارتون في ليلة السابع من شهر أكتوبر في تمام الساعة الثامنة.

وعندئذ صاح أوسبورن وهو يرتجف من الانفعال قائلاً: وقد رأيتك ووصفتك وصفاً دقيقاً.

فقال ليغون: بل لقد وصفته وصفاً يفوق الحدّ. إنك لم ترَه في ذلك اليوم لأنك لم تكُن واقفاً على عتبة صيدليتك، ولأنك كنت أنت نفسك على الرصيف المقابل تقتفي أثر الأب غورمان وأنت الذي قتلته.

- ماذا؟!

وبدا أوسبورن مضحكاً؛ فقد فغر فمه واتسعت عيناه، فاستطرد ليغون قائلاً موجّهاً الحديث للسيد فينابلز: اسمح لي يا سيدي أن أقدّم لك السيد زاكاريوس أوسبورن، الصيدلي السابق بشارع بارتون ببادنغتون. لقد أظهرت نحوه اهتماماً كبيراً عندما قلت لك إننا نضعه تحت المراقبة منذ وقت طويل، وقد كان هو من الغباء بحيث دسّ في حديقتك كيساً يحتوي على أملاح التاليوم. ولما كان لا يدري شيئاً عن حالتك فقد راقه أن ينسب إليك الجريمة التي ارتكبها هو، وكان عنيداً وغبياً بحيث رفض الاعتراف بخطئه.

فصاح أوسبورن قائلاً: غبيّ؟ كيف تجرؤ على هذا القول؟! لو أن... لو أن لديك فكرة عمّا أقدمتُ عليه وعما أستطيع القيام به... إنني...

وخانه النطق لفرط غضبه فقال ليغون معاتباً برفق: ما كان ينبغي أن تمكر معي، فلو أنك بقيت في صيدليتك بهدوء لما وقفت الآن أحذّرك -بما يمليه عليّ واجبي- من أن كل ما تنطق به سوف يُتّخَذ قرينة ضدّك.

وعندئذ أخذ أوسبورن يصرخ.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

(برواية مارك إيستربروك)

– ولكن ما زالت نقاط كثيرة أريد أن تجلوها لي يا ليغون.

وكان المفتش جالساً تحت تصرّفي بعد أن فرغ من جميع الإجراءات وأمامنا على المنضدة كوبان كبيران من القهوة، فردّ عليّ قائلاً: لا ريب أنك دهشت بعض الشيء يا إيستربروك.

– طبعاً؛ فقد كنت واثقاً من إدانة فينابلز، ثم إنك لم تدَع لي أية فرصة للشك.

– ما كنت أستطيع غير ذلك؛ فقد كان لا بدّ لي من الاحتفاظ بالأمر سرّاً حتى أفلح في أخذ أوسبورن على حين غرّة. لقد كان الأمر خدعة ولم تكُن لديّ أدلة كافية، وقد أعددت تلك المهزلة بمعونة فينابلز، وكان يجب أن نرخي الحبل لأوسبورن وأن أعقد العقدة في اللحظة المناسبة، وهذا هو ما حدث.

– هل هو مجنون؟

– لم يكُن مجنوناً في البداية، ولكن انتهى به الأمر إلى الجنون؛ فقد أخذ يقتل الناس ويتصرف في مصائرهم بحيث انتهى به الأمر إلى الاعتقاد بأنه قادر على كل شيء، ولكن ما إن رميته

بالغباء حتى تملّكه الغضب والحنق فأخذ يصرخ وذكر كل ما قام به كما رأيت كي يثبت ذكاءه.

- إذن فقد اتفقت مع فينابلز قبل أن تقوم بشيء من ذلك، فهل فضّل فكرة التعاون؟

فأجاب ليغون قائلاً: أظن أنه طاب له أن يفعل ذلك، ومن جهة أخرى كان من الوقاحة بحيث قال إنه لا مانع من إسداء خدمة لي نظير خدمة أخرى أسديها أنا له.

- وما هي تلك الخدمة؟

- أظن أنه لا يجب أن أقول لك ذلك، ولكن وقعت سلسلة من حوادث السطو على عدد من المصارف تمّت كلّها بنفس الطريقة، وكان السطو يتم في كل مرة بعد دراسة دقيقة وافية، ويقوم برسم الخطة رجل لا يشترك في عمليات السطو أبداً، وكانت لدينا بعض الشكوك، ولكن الرجل اختفى ومعه ثروة كبيرة، وكان من الذكاء بحيث لم يُقدِم على أية حادثة سطو أخرى، ولن أقول لك أكثر من هذا. لقد كان وغداً ذكياً، ولكنه لم يكُن قاتلاً.

- هل شككت في أوسبورن منذ البداية؟

- نعم، لقد كان يبحث عن الشهرة، وكما قلت له، لو أنه لزم الهدوء لما خطر ببال أحد منا الاشتباه في السيد زاكاريوس أوسبورن الصيدلي المحترم، ولكن القتَلة أمرهم غريب دائماً؛ فهم يُقدِمون على أي شيء للفت الأنظار إليهم بطريقة ما.

- وماذا عن رغبة الموت؟ أهي إحدى نظريات تيرزا غراي؟

فأجاب ليغون قائلاً: من الخير أن تنسى تلك المرأة وكل ما قالته. أعتقد أن الذي دفعها إلى هذا القول هو شعورها بالوحدة

واعتقادها بذكائها الخارق وحرمانها من جمهور يقرّ لها بذلك.

- ولكنك لم تذكر لي متى ارتبت فيه.

- عندما بدأ يكذب. فهو في أقواله الأولى ذكر وصفاً دقيقاً للرجل الذي كان يتبع الأب غورمان مع أنه لم يكُن بوسعه أن يراه جيداً وهو واقف على الرصيف المقابل بسبب الضباب. لقد كان من الممكن أن يرى الجزء الجانبي من وجه فينابلز، ولكن كان من المحال أن يتبين تفاحة آدم، كما أن أوصافه للرجل الذي زعم أنه رآه يتبع الأب غورمان كانت تنطبق على رجل سبق أن رآه من قبل. ولا ريب أنه رأى فينابلز في سيارة في بورنموث ذات يوم فرسخت صورته في ذهنه دون أن يدري أنه مشلول. ومن ناحية أخرى كان أوسبورن صيدلياً، وقد ظننت في بادئ الأمر أن للقائمة التي عثرنا عليها مع الأب غورمان صلة بتجارة المخدّرات، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك كما أدركت فيما بعد. وقد كان من المستطاع أن أنسى كل شيء عن أوسبورن لو أنه لم يصرّ على إثارة الاهتمام به، وقد كان يريد أن يعرف مراحل التحقيق، ولهذا كتب إلينا يقول إنه رأى الرجل الذي تكلّم عنه في حفلة خيرية بماتش ديبنغ، ولم يكُن يعرف أن السيد فينابلز مشلول، وعندما اكتشف ذلك لم يكُن من الذكاء بحيث يرجع عن أقواله، وكان هذا غروراً منه، وهو غرور أدّى إلى ضياعه لأنه لم يشأ أن يقرّ بخطئه وظلّ متمسكاً بأقواله ككلّ غبيّ أحمق. وقد ذهبت لزيارته في بورنموث، كما أتت الزيارة لجبل إفرست بثمارها، وانصبّ حديثه معي على اهتمامه بجبال الهملايا وحبّه لاستكشاف مجاهل الطبيعة. وكانت هذه مزحة منه طبعاً لأننا إذا تلاعبنا بالألفاظ نجد أن إفرست معناها الراحة الأبدية، والراحة الأبدية هي تجارته ومهنته، فهو يقدّم للناس راحة أبدية نظير مبلغ مناسب. والواقع أنها كانت فكرة عظيمة، وكان

المشروع كله يدلّ على منتهى الذكاء، فبرادلي في برمنغهام وتيرزا غراي تقوم بجلساتها في ماتش ديبنغ، فمَن ذا الذي يشكّ في أن للسيد أوسبورن أية صلة بتيرزا غراي أو ببرادلي أو بالفريسة نفسها؟ أما تطبيق المشروع فكان لعبة صبيانية بالنسبة لصيدلي مثله، وكما قلت لو أنه لزم الهدوء...

فسألته قائلاً: ولكن ماذا كان يفعل بأمواله؟ أنا لا أظن أنه كان يمارس عمله هذا مجاناً.

- أجل، لقد كانت له أحلام كبيرة، فقد كان يحلم بالأسفار والرحلات ويتمنّى أن يكون ثرياً مرموقاً يشار إليه بالبنان، ولكنه لم يكُن الشخص الذي يحلم أن يكون، وأظن أن مفهومه للقوة والسلطان يكمن في قرارة نفسه بالغبطة التي يشعر بها، والأكثر من هذا أنه سيغتبط بوقوفه في قفص الاتهام وسيسرّه أكثر أن يصبح محور اهتمام الجميع.

فعدت أخاطبه قائلاً: ولكنك لم تقُل لي ماذا كان يفعل بأمواله.

فأجاب ليغون بقوله: ما أسهل الردّ على سؤالك هذا! وأظن أن ذلك ما كان ليخطر لي على بال لولا الطريقة الحقيرة التي فرش بها منزله. لقد كان رجلاً بخيلاً يحبّ المال، لا لشيء إلا ليكنزه، ولم يكُن ينفق منه شيئاً تقريباً.

- هل تعني أنه وضع كل أمواله في المصرف؟

فقال ليغون: لا، سوف نعثر عليها مخبوءة تحت أرضية بيته بكل تأكيد.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

(برواية مارك إيستربروك)

كان كل شيء في ماتش ديبنغ عادياً يدعو إلى الارتياح والاطمئنان، وكانت رودا تُعنى بكلابها، وأعتقد أن هذه الأخيرة كانت تشكو من أسنانها. وعندما اقتربت من رودا رفعت رأسها وسألتني إن كان يطيب لي أن أساعدها، ولكنني رفضت وسألتها عن جنجر فقالت: لقد ذهبت إلى الحصان الأشهب.

- ماذا؟!

- قالت إن لديها شيء ما يجب أن تفعله.

- ولكن البيت خالٍ!

- أعلم ذلك.

- إنها تجهد نفسها كثيراً، ثم إنها ليست في حالة تسمح لها بذلك.

- لا تقلق هكذا، إن جنجر على ما يرام. هل قرأت الرواية الأخيرة للسيدة أوليفر؟ إن عنوانها «الببغاء البيضاء» وهي فوق المكتب.

- بارك الله في السيدة أوليفر والسيدة أديث بينز.

- ومَن هي أديث بينز هذه؟

- امرأة تعرّفت على رجل في صورة، وهي خادمة مخلصة لإشبينتي.

- أنا لا أفهم كلمة واحدة مما تقول. ماذا حدث لك يا مارك؟

لم أُجِب، وأخذت طريقي إلى «الحصان الأشهب». وفي منتصف الطريق التقيت بالسيدة دين كالتروب فحيّتني بحماسة وأشارت بيدها إلى المقهى القديم الذي يقبع بهدوء تحت شمس الخريف الهادئة، وخاطبتني قائلة: ما أشدّ غبائي! إنني لم أفطن إلى نقطة الضعف. لم يكُن في الأمر أرواح ولا شيء من السحر الأسود، وإنما هي مجرّد خدع لابتزاز المال وقتل النفس البشرية دون وازع من ضمير، هذه هي نقطة الضعف. لا شيء يتّسم بالنبل ولا العظمة، بل هو عمل ينطوي على الخسة والنذالة.

- يبدو أنك متفقة مع المفتش ليغون في هذه النقطة.

فقالت السيدة دين كالتروب: أنا أقدّر هذا الرجل. هيا بنا إلى «الحصان الأشهب» لنرى ما تفعله جنجر هناك.

- ماذا تفعل؟

- تنظّف شيئاً.

* * *

استقبلتنا على عتبة الدار رائحة نفاذة من النفتالين، وكانت جنجر تعمل بصبر واهتمام بين مجموعة من الخِرق والزجاجات،

وما كادت تسمع خطواتنا حتى رفعت عينيها لترى مَن القادم. وكانت تغطي رأسها بشال؛ إذ لم يكُن الشعر قد نبت فيه بعد، فكانت تبدو كالخيال.

قالت السيدة دين كالتروب وكأنها قرأت أفكاري كعادتها: إن صحّتها على ما يرام.

وقالت جنجر بزهو وانتصار وهي تشير إلى اللافتة القديمة: أرأيتما؟

وكانت قذارة السنين قد انمحت وظهر الحصان الأشهب بوضوح وفوقه هيكل عظيم برّاق. ولزمنا الصمت لحظة ثم قالت السيدة كالتروب بهدوء: حسناً، لا بدّ أن أنصرف الآن لأنني يجب أن أحضر اجتماع الأمهات.

وتوقّفت على عتبة الباب ثم التفتت إلى جنجر وقالت: سوف تكونين أمّاً طيّبة.

فاحمرّ وجه جنجر دون سبب واضح في حين سألتها قائلاً: جنجر، هل تريدين؟

- ماذا؟ أن أكون أمّاً طيّبة؟

- أنت تعلمين ما أريد.

- هذا جائز، ولكنني أفضّل عرضاً أكيداً.

وأقدمت على ما تريد، فسألتني قائلة: هل أنت متأكّد من أنك لا تريد أن تتزوّج هرميا؟

- يا إلهي، لقد نسيت!

وأخرجت من جيبي رسالة وقلت: لقد جاءتني هذه الرسالة

منها منذ ثلاثة أيام تسألني فيها إن كنت أريد أن أصحبها إلى مسرح الأولدفيك لمشاهدة مسرحية «الحب الضائع».

فأخذت جنجر الرسالة من بين أصابعي ومزّقتها وهي تقول: عندما تريد أن تذهب إلى المسرح مستقبلاً فسوف تصطحبني أنا.

* * *

(تمت)